12
المجتمع المدني في تونس
استراتيجيّات مفقودة وعوائق بالجملة
(م. فيصل العش)

مجلّة
الإصلاح
إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

128

العدد 128 - السنة 6 - مارس 2018 / جمادى الآخرة- رجب 1439
يصدرها منتدى الفارابي للدراسات والبدائل وتوزّع مجّانا عبر البريد الألكتروني

20
الحرية المستعبدة
في عصر الحداثة وأمراضها
(أ.د.فوزي أحمد عبد السلام)

58
ترجمة القرآن الكريم :
تعبير عن حرف أم تعبير عن معنى ؟
(امحمد رحماني)

62
الوحي الإلهي والوعي الإنساني
(عادل دمق)

«منمنمة للواسطي مرافق للمقامة الدمشقية
من مقامات الحريري ، عام 1237 م»

مجلّة الإصلاح
إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

مجلّة إلكترونيّة
فكريّة ثقافيّة جامعة
***
السنة السادسة

تصدر عن منتدى الفارابي للدراسات والبدائل
ص.ب 353، سيدي عبّاس 3062 صفاقس، الجمهورية التونسية
ر.د.م.د : 2902 – 2382.
هذه النسخة الكترونية - يحجّر نسخها ورقيّا

مـــــــارس 2018
جمادى (2)- رجب 1439
128
http://www.alislahmag.com

هدف مجلّة الإصلاح بلورة فكر وسطيّ يتفاعل مع محيطه ويقترح حلولا لمختلف مشاكله الفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة. وتسعى أن تكون حاضنة لأفكـار ورؤى تناضل من أجل بناء دولة فلسفتها خدمة المواطن، ومجتمع مبني على التّعاون والتآزر والعيش المشترك في كنف الحريّة والمساواة. هي منبر للتّحليل واقتراح البديل من دون تشنّج إيديولوجيّ ولا تعصّب لفئة دون أخرى. يحلم القائمون عليها مواصلة ما بدأه المصلحون، دون تقديس لهم أو اجترار لأفكارهم، منطلقون من الواقع الذي يعيشون فيه، متمسّكون بهويّتهم العربيّة الاسلاميـّـة ومنفتحون على العصر وعلى كلّ فكـــرة أو مشروع يؤدّي إلى الإصلاح.

للمشاركة في تأثيث المجلّة

* النشر بالمجلّة تطوعي وبدون مقابل و يتحمّل فيه الكاتب مسؤولية أفكاره وكتاباته.
* للمجلّة كامل الصلاحيّة في نشر أو رفض المشاركات.
* لا تقبل المشاركات التي تدعو إلى العنف أو التّمييز على أساس الجنس أو العرق أو الدّين أو تتضمّن شتما أو معلومات من دون ذكر المصدر.

للاتصال بالمجلّة

* توزع المجلّة مجانا عبر البريد الالكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي
* رئيس التحرير : فيصل العش، faycalelleuch@gmail.com
* مراجعة لغويّة : علي عبيد – فيصل الرباعي.
* ر.د.م.د : 2902 – 2382.
* البريد الالكتروني للمجلّة : alislah.mag@gmail.com
* موقع الواب : www.alislahmag.com
* صفحة الفايس بوك : alislah.mag

الافتتاحية

بهذا العدد تكون مجلّة الإصلاح قد أطفأت شمعتها السادسة. كان الأمر في البداية حلما جميلا صعب التحقيق نظرا لغياب عناصر القوّة في باعث المشروع،فهو لم يكن أديبا ولا مفكّرا ولا حتّى مختصّا في ميدان الصّحافة. لكنّ الحلم تحوّل إلى محاولة تلو المحاولة وبمرور الايام وصدور الأعداد اشتدّ عود «الإصلاح» وأصبح لها منهج خاص وطابع يميّزها عن غيرها من الدوريات الورقية والألكترونية.

لقد تحوّلت «الإصلاح» بتدرّج من ردّة فعل على الوضع الرديء للسّاحة الصحفيّة والثقافية، إلى مشروع دوريّة فكريّة سياسيّة ذات منحى إصلاحي تكون«حاضنة لأفكار ورؤى تناضل من أجل بناء دولة فلسفتها خدمة المواطن، ومجتمع يبنى على التعاون والتآزر والعيش المشترك في كنف الحريّة والمساواة».

ولا أفشي سرّا إذا ذكّرت أنّ «الإصلاح» تصدر عن خلفيّة عروبيّة إسلاميّة تجديدية وتنويريّة، ترى أنّ بناء الإنسان الحرّ القادر على الابداع لا يكون بالتنكّر لهويّته والانسلاخ عنها وإنّما بالانطلاق منها والاستفادة من مخزونها الثقافي والفكري الغني بقيم الإسلام الخالدة وتعاليمه السّمحة باعتبارها القاعدة الأساسية للصمود ومواجهة التحديات.

لم تكن «الإصلاح» في يوم من الأيام لسان حزب أو مجموعة إيديولوجيّة بعينها بل كانت طيلة ست سنوات وعلى امتداد 128 عددا منبرا حرّا يستقطب الجميع من مختلف التّيارات الفكريّة والسّياسية إلاّ من أخذ عهدا على نفسه بمقاطعتها منذ البداية. استطاعت المجلّة في فترة وجيزة نسبيّا أن تجمع حولها كتّابا وشعراء متطوّعين من عدّة دول عربيّة من بينها المغرب والعراق وسوريا ومصر والجزائر واليمن وآخرين من العرب والتونسيين المهاجرين في كندا وفرنسا وألمانيا والنرويج وإيطاليا

لقد حاولنا طيلة ثلاث سنوات الاستفادة من التكنولوجيّات الحديثة في مجال الاتّصال لتصل المجلّة إلى أكبر عدد ممكن من القراء، لكنّ الطريق مازال طويلا، ومازالت رائحة أزهارها العطرة ضعيفة حتّى تتغلّب على روائح الرّداءة المهيمنة على السّاحة الثقافيّة والفكريّة ومازال أمامنا عمل كبير وعلينا بذل جهد أكبر من أجل توفير المضمون الجيّد المفيد وتحقيق ما نحلم به وأهمّه إرضاء قرائنا الأعزّاء.

ولأنّ هذا العمل صعبٌ ويتطلّب مجهودات إضافيّة، فإنّنا ندعو كل من يطمح إلى المساهمة في هذا المشروع، أن يساندنا بالقراءة أو بالكتابة، أو بالتّوزيع عبر الوسائل الالكترونية المتاحة في مجال الاتّصال، لنواصل معا ما بدأه المصلحون، دون تقديس لهم أو اجترار لأفكارهم من أجل تحقيق أحلامهم وأحلامنا وأحلام هذه الأمّة في التنمية الشّاملة والازدهار حتّى تحتلّ الموقع الذي يليق بها بين الأمم.

كتاب الإصلاح

22

http://www.alislahmag.com

يصدر قريبا

«من تراثنا إلى ثورتنا الثقافية»

بقلم : د.لسعد الماجري

التحميل مجاني عبر موقع المجلّة:
www.alislahmag.com

في هذا العدد

18 - التدوينة

العالم الإسلامي المعاصر
الحاجة إلى ثقافة إحيائية إنسانية

البحري العرفاوي

26 - خواطر

نريد الإصلاح ولكن...

امحمد الخوجة

30 - كلام على كلام

حديث في السياسة
مع جيران متحزبين

الخامس غفير

34 - معمارنا

عمارة المدن و القيم
في الحضارة العربيّة الإسلاميّة

محمد العتتي

40 - مدارس إسلامية

خصائص المعرفة الصوفية (1)

د. محمد ديان

46 - همسة

الإصلاح الديني: إعتناق العقلانية والتحرر من سلطة التهافت.

محمد بن الظاهر

48 - الكلمة للخبراء

منظومة الصفقات العموميّة (1)

أيمن الديماسي

54 - وجهة نظر

الثورة الموسوية
زمن الطغيان الفرعوني

محمد أمين هبيري

في هذا العدد

68 - تراثنا

التعريف بمخطوط:
نوازل ابن الحاج الشهيد

د. الميلود كعواس

72 - تمتمات

مرافعات

م.رفيق الشاهد

74 - الإنسان والسماء

دموع الوطن

د. نبيل غربال

80 - 9 أسئلة

الروائي البحريني
الأستاذ أحمد المؤذن

أجرى الحوار: المودن موسى

86 - حديقة الشعراء

الزيتونة التميمية

د.حسن الأمراني

90 - حديقة الشعراء

بيان الغضب

سهام العكروت بلخير

92 - شخصيات الإصلاح

طارق رمضان
حفيد الشهيد حسن البنا المثير للجدل

التحرير

94 - قبل الوداع

مجتمع مدني مأزوم

لطفي الدهواثي

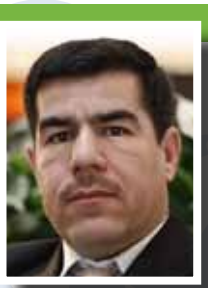

من إبداعات
الخطاط العراقي
الأستاذ محفوظ ذنون

من مواليد محافظة نينوى بالعراق عام 1971، حصل على شهادة القانون من جامعة الموصل عام 1994، وعمل محامياً فترة من الزمن، ثم تفرغ لممارسة فن الخط.

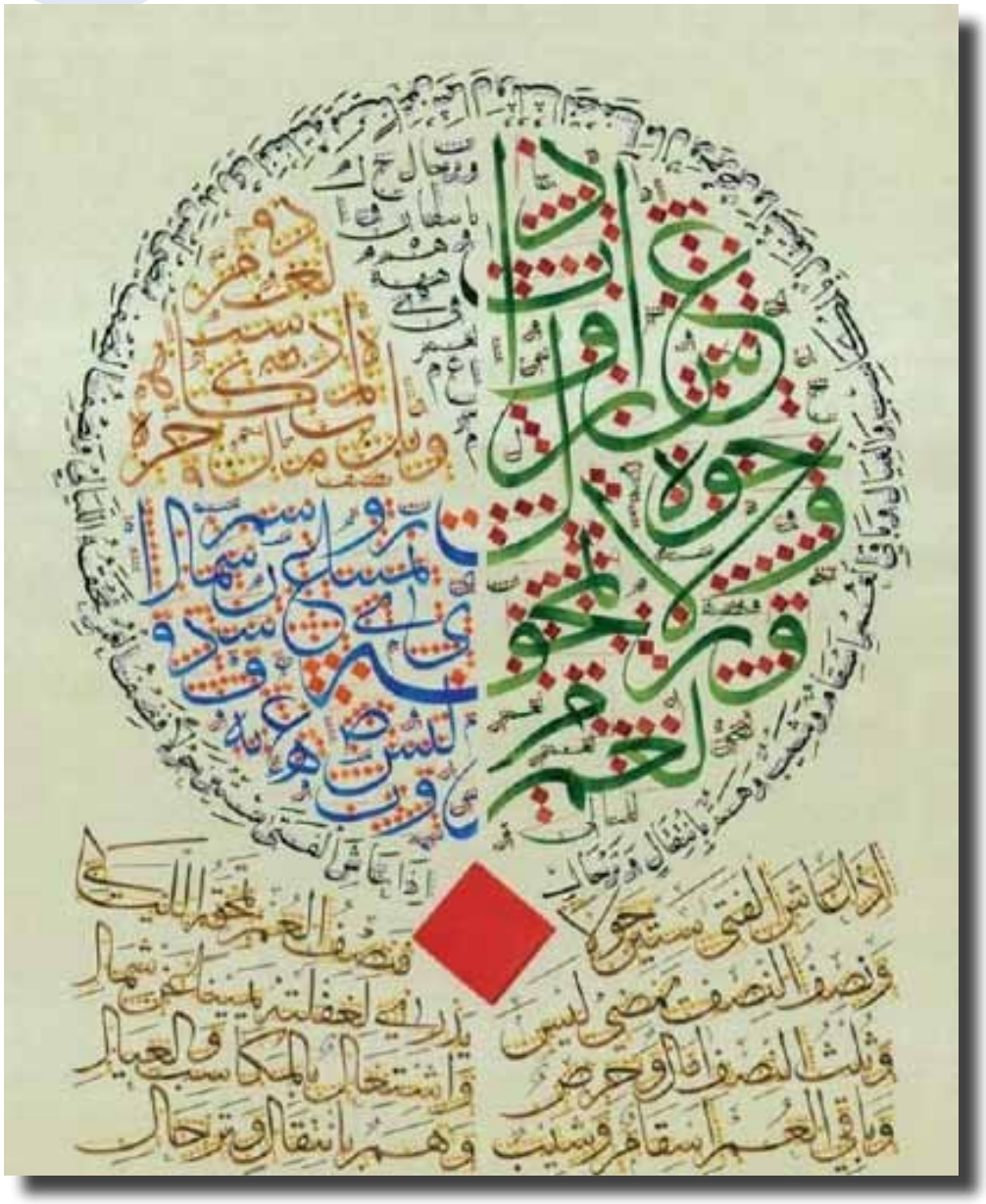

«إذا عاشَ الفَتى ستينَ عاما * فَنِصفُ العمرِ تمدَقُهُ اللَيالي.»
«الإمام علي بن أبي طالب»

«إنّ النقد الذّاتي ليس جلد الذّات وتعذيبها على نحو أليم وجارح ، النقد الذّاتي مقاربة صحيّة هادئة لأخطاء الذّات ولمواطن الخلل أو العطب فيها في ضوء ما تمدّنا به الحقائق الجديدة في الواقع وفي الوعي من معطيات تسمح بإعادة مراجعة رصيدنا السابق من المعرفة والتصورات»

عبدالإله بلقزيز

نهاية الداعية ، ص 62

المجتمع المدني في تونس
استراتيجيات مفقودة وعوائق بالجملة

م. فيصل العش
«رئيس تحرير المجلة»
faycalelleuch@gmail.com

تمهيد

بالرّغم من إقرارنا بتعدّد وتنوّع تعريفات «المجتمع المدني» نتيجة الاختلاف في تحديد أصل المصطلح وأسباب التّسمية والظّروف التي نشأ فيها ومجال استخدامه[1]، والتصاق مفهومه في أغلب الحالات بدلالات معياريّة وأيديولوجيّة تختلف من سياق ثقافي واجتماعي وسياسي إلى آخر، ومن تشريع إلى آخر، فإنّنا لن ندخل في هذا المقال -على الأقل - ضمن هذا الجدل والسّجال ولن نتعمّق في مثل هذه المسائل بل سنعتمد التّعريف الذي يقدّم المجتمع المدني بصفته « مجموعة التّنظيمات التّطوّعية المستقلّة ذاتيًا، (وبدرجات نسبيّة) التي تملأ المجال العام بين الأسرة والدّولة، وهي غير ربحيّة، تسعى إلى تحقيق منافع أو مصالح للمجتمع ككلّ، أو بعض الفئات المهمّشة، وأحيانًا تحقيق مصالح أعضائها، وتلتزم في ذلك بقيم ومعايير الإدارة السّلمية للاختلافات، والتّسامح، وقبول الآخر»[2]. فالمجتمع المدني الذي نعنيه في هذا المقال هو مجموع الجمعيّات والمؤسّسات الأهليّة المستقلّة عن أجهزة الدّولة والتي تشمل الجمعيّات الخيريّة (التّقليدية وقطاع منها له سمة دينيّة)، والرّعائية والخدماتيّة، والجمعيات التّنموية التي تساعد المواطن على تحسين وضعه بالاعتماد على ذاته، والمنظمات الحقوقيّة والدّفاعية التي تسعى لإرساء مفاهيم وممارسات حقوق الإنسان بالمعنى الواسع..

تلعب مختلف هذه الجمعيّات دورَ الوسيط بين الفرد والدّولة ولها دور مهمّ في تكوين المواطن والارتقاء بشخصيّته من خلال نشر المعرفة والوعي وثقافة الدّيمقراطية وروح المواطنة والمبادرة والتّطوع وحثّه على المساهمة في الحياة العامّة وتعبئة الجهود الفرديّة والجماعيّة لتحقيق التّنمية الاجتماعية والاقتصادية والتأثير في السّياسات العامّة وتعميق مفهوم التضامن الاجتماعي.

> **يلعب المجتمع المدني دورَ الوسيط بين الفرد والدّولة ويؤثر في السّياسات العّامة ويعمل على تعميق مفهوم التضامن الاجتماعي وله دور مهمّ في تكوين المواطن والارتقاء بشخصيّته.**

مجتمع مدني تونسي

انطلاقا من هذا المفهوم يمكن الحديث عن مجتمع مدني تونسي[3] نشأ منذ تاريخ قديم شمل الجمعيّات الوقفيّة والدّينيّة والخيريّة وتجمّعات الاختصاصيّين خاصّة في ميدان التّعليم ثمّ نشأت خلال فترة الاستعمار الفرنسي المباشر الأندية الثّقافيّة والاتحادات العمّالية والجمعيّات الرّياضيّة والأحزاب السّياسية. وقد كان لهذه الجمعيّات بمختلف أنواعها واختصاصها دور فعّال في خلق الوحدة الوطنيّة وزرع روح المقاومة ومساعدة المناضلين السّياسيين والعسكريين «الفلاقة» ماديّا ومعنويّا أثناء وقوفهم في وجه المستعمر الغاشم. وعوض أن تتمّ الاستفادة من هذا الرّصيد الثّري للعمل الجمعيّاتي الذي يعكس قناعة المجتمع التّونسي بمفهوم التّعاون واستعداده للمساهمة التّطوعيّة في التّنمية وفي بناء دولة ما بعد الاستعمار، عمد بورقيبة ومن بعده بن علي إلى تحويل «المجتمع المدني» إلى كيان تابع عبر تدجين الجمعيّات ومحاصرتها وجعلها تحت سيطرة الحزب الواحد من أجل خدمة برامجهما ومخططاتهما. ولقد كان للثّورة الأثر البالغ في تغيير هذا الواقع حيث تحرّر التّونسيون وتوجّهوا نحو تأسيس الجمعيّات بشكل لافت للنّظر. واليوم وبعد سبع سنوات عن لحظة الانعتاق من الدّكتاتورية يحقّ لنا أن نتساءل هل نجح التّونسيون في تكوين «مجتمع مدنيّ» قادر على الفعل الحقيقي في واقعهم المعتلّ ؟ أمّ أنّ هذا الكمّ الهائل من الجمعيات ما هو إلاّ أرقام وحسابات بمعناها المادّي والمعنوي؟ وما هي أهمّ العوائق التي تقف حاجزا أمام نجاح «المجتمع المدني» في تحقيق أهدافه؟ وهل هو قادر على تحقيق إستقلاليته والإفلات من تأثير الأحزاب السّياسية في الدّاخل وأجندات بعض القوى الخارجيّة بما فيها المخابراتية لبعض الدّول والجماعات الدّولية؟

الأرقام لا تكذب

جاء في تقرير مركز الإعلام والتّكوين والدّراسات والتّوثيق حول الجمعيّات «إفادة»[4] أنّ عدد الجمعيّات في تونس بلغ في موفى شهر نوفمبر 2017 ، 20 ألفا و854 جمعيّة أي بمعدّل جمعيّة لكل 546 تونسي. ورغم أنّ هذا الرّقم مازال بعيدا عن متوسّط عدد الجمعيّات بالولايات المتّحدة الأمريكيّة (جمعيّة لكل 75 مواطن) ومثله في فرنسا (جمعيّة لكل 65 مواطن) وهو أقلّ بكثير من عدد الجمعيّات بالمغرب الشّقيق (جمعيّة لكل 290 مواطن)، بالّرغم من هذا النّقص فإنّ هذا العدد يعتبر هامّا مقارنة بما كان عليه قبل الثّورة حيث

لم يتجاوز 9744 جمعيّة أغلبها تأسّس بإيعاز من الفريق الحاكم أو على الأقل بموافقته ورضاه ليكون سندا للحاكم دون أن يكون لديه أي دور في رسم السّياسات، أمّا الجمعيّات الرّافضة لهذا التوجّه فقد كانت محاصرة ومحدودة الإشعاع بسبب ما كان يسلّط عليها من ضغوطات وانتهاكات.

> **"لم تُؤسّس أغلب الجمعيّات ضمن توجّه شعبي هدفه ردم الهوّة الاجتماعيّة بين المدن الكبرى وبقية المدن ولم تهدف خدمة المناطق المحرومة التي همّشتها السّياسات السّابقة"**

تحتكر تونس الكبرى 31 % من العدد الجملي للجمعيات على المستوى الوطني تليها ولاية صفاقس بـ 8 % فنابل بـ 6.2 % في حين لا يتجاوز مجموع الجمعيّات في الجنوب الغربي 7.4 % وفي كامل الشّمال الغربي 9 %. وتدلّ هذه الأرقام على عدم التّوازن في التّوزيع الجغرافي للجمعيّات ويعود ذلك حسب تقديرنا إلى طبيعتها النخبويّة باعتبار أنّ النّخب تتواجد أساسا في العاصمة وفي بعض المدن الكبرى.

ولعلّ نظرة سريعة إلى نوعيّة الجمعيّات تؤكّد هذا التمشّي حيث يتبيّن حسب نفس التّقرير أنّ نصف الجمعيّات التّونسية (10428 جمعية) لها صبغة مدرسيّة أو ثقافية فنيّة أوعلميّة وهذه الجمعيّات لا يمكن أن يكون القائمون عليها من خارج النّخبة.

وجاء في التقرير أنّ مجموع الجمعيّات التي تأسست في تونس وصفاقس ونابل (3 مدن ساحليّة) يساوي مجموع الجمعيات التي تأسست في 13 ولاية تشمل كامل الجنوب التونسي بشرقه وغربه والشّمال الغربي والوسط. كما أنّ نسبة الجمعيّات ذات المنحى الخيري والتّنموي لا تتجاوز 22 % من العدد الجملي للجمعيات وهذه إشارات هامّة تدلّ على أن أغلب الجمعيّات لم تُؤسّس ضمن توجّه شعبي هدفه ردم الهوّة الاجتماعيّة بين المدن الكبرى وبقية المدن ولم تهدف خدمة المناطق المحرومة التي همّشتها السّياسات السّابقة [5].

استراتيجيّات مفقودة، فشل في الاستقطاب وعوائق بالجملة

إن كانت الأرقام تدلّ على أنّ جسم المجتمع المدني في تونس بدأ يتضخّم شيئا فشيئا بارتفاع عدد الجمعيات إلاّ أنّ ذلك لا يدلّ على حيويته لأنّ كثيرا من هذه الجمعيات لا تعرف للنّشاط سبيلا، حيث تمّ تأسيسها إمّا تلبية لرغبات شخصيّة مرتبطة بالزّعامة شأنها شأن بعض الأحزاب السّياسية أو كردّ فعل عفوي على سنوات القمع النوفمبريّة. وإذا كان لبعض مكونات المجتمع المدني التّونسي تأثير في الواقع فإنّ أغلبها مازال عاجزا عن القيام بالدّور المنوط بعهدته خاصّة في هذه الفترة الحرجة التي تمرّ بها البلاد والتي تتميّز بعدم الاستقرار وكثرة التّهديدات لعمليّة الإصلاح التي يعمل التونسيّون على تنفيذها في أرض الواقع قصد تحقيق تنمية شاملة مستدامة وتحويل هذا البلد إلى مكان يطيب فيه العيش.

وبالرّغم من شيطنة الأحزاب وحملات تشويه السّياسيين التي قادها جزء كبير من الإعلام لغايات معلومة أدّت إلى نفور التّونسيين وخاصّة الشّباب من الأحزاب ومن الانخراط في العمل السّياسي، فإنّ الجمعيّات

(إلاّ ما ندر) لم تقدر على استقطاب هذا الشّباب ولم تنجح في جلب الأنظار إلى أنشطتها التي صُرفت من أجلها أموال لا يعلم أحد مصدرها ومأتاها، وقد يرجع ذلك إلى طريقة التّسويق لهذه الأنشطة أو إلى طبيعة الأنشطة نفسها التي لا تعني المواطن العادي ولا تمسّه في حياته اليوميّة وثقافته وعاداته.

تعاني أغلب منظمات المجتمع المدني من ضعف وهشاشة نتيجة عوامل ذاتية وموضوعيّة متداخلة من بينها:

- ضعف التمويل ومحدودية الموارد وهو ما يعيق تعدّد الأنشطة ويقلّل من امكانيّات الفعل الميداني.

- افتقارها إلى رؤى تنظيميّة وقدرات بشريّة ومعارف في شؤون الإدارة والحوكمة. ذلك أن القدرات البشريّة (العدد، النّوعيّة، الإدارة الجيّدة المؤسّساتية)، هي التي توفّر الفاعليّة للمنظمة، وليس الموارد المادّية وحدها..

- غياب التّخطيط الاستراتيجي الواضح والاستدامة والتّراكم في العمل والجهود. لأنّ التّخطيط الاستراتيجي يمكّن المجتمع المدني من التّركيز على قضيّة واحدة (أو اثنتين) ويوفّر تراكمًا في الخبرة ويقترن بالتّخصّص، وبالتالي فعّالية أكبر في الواقع وحين يغيب التّخطيط الاستراتيجي، تتعقد قضية التّمويل بشكل أكبر[6]

- وجود التباس وخلط في مفهوم المجتمع المدني ودوره في التّنمية.

- غياب التقييم الذّاتي لآداء مكونات المجتمع المدني وإسهاماتها استنادا إلى منهج علمي واضح. وأنّا يحصل هذا التقييم و 7 % فقط من الجمعيات تعقد اجتماعاتها بصفة دورية حسب الصيغ القانونية في حين نجد 52 % من الجمعيات لا تعقد اجتماعات البتّة ؟ [7]

- صعوبة التّعرف على أنشطة الجمعيّات نتيجة سياسة إعلاميّة مغلوطة وخطاب نخبوي أكاديمي ممّا يؤدّي إلى صعوبة انخراط المواطنين فيها أومتابعة أنشطتها.

- تداخل مهام العديد من مكونات المجتمع المدني في تقديم الخدمات العامّة مع مهام المؤسسات الحكوميّة.

- ارتهان عديد الجمعيات للمموّلين الأجانب الذين لديهم أجندات خاصّة تختلف عن مطامح التّونسيين والتّونسيات. إذ باتت هذه الجمعيّات تخضع لوصاية الجهات المانحة وشروطها بغية الحصول على موارد ماليّة لأنشطتها، فأصبحت تفضّل القيام بأنشطة في مجالات لا تستهدف الاستجابة للحاجيّات المحليّة الملحّة التي تتطلبها المرحلة. وهو ما جعل هذه الجمعيّات مجرّد آليات لتنفيذ المخطّطات الإستراتيجية للأجهزة المانحة.

ارتهان عديد الجمعيات للمموّلين الأجانب جعل هذه الجمعيّات مجرّد آليات لتنفيذ المخطّطات الإستراتيجية للأجهزة المانحة.

> إنّ بلوغ «المجتمع المدني» مرحلة النّضج والتأثير يتطلّب فترة لابأس بها من التّجارب والمحاولات وتحقيق درجة من استدامة النّشاط وتراكمه.

- تمثيل بعض مكونات المجتمع المدني لجهات حكوميّة وانحياز البعض الآخر لفئات ايديولوجيّة أو طائفيّة أو حزبية. إذ تمثّل 33 % من الجمعيات امتدادا لهيكلة وبرامج أحزاب سياسيّة وتعمل كواجهة لهذه الأحزاب في مجال الأعمال الخيريّة والتعبويّة [8].

- التّصنيف الإيديولوجي للجمعيّات سواء فيما بينها أو من طرف السّلط الحاكمة التي من المفروض أن تتعامل مع مختلف الجمعيّات حسب قدراتها الحقيقية وبرامجها وليس حسب خلفيتها الفكرية أو الإيديولوجيّة لكنّ حقيقة الميدان تؤكّد عكس ذلك.

- هيمنة الممارسات البيروقراطيّة على نشاط الجمعيات واحتكار سلطة أخذ القرار في عدد قليل من الأعضاء لا يتعدّى في أفضل الحالات أفرادها المؤسّسين أو رئيس هيئتها ونفر قليل ممن يدعّمونه.

- غياب ثقافة التّطوع والعطاء لدى شرائح كبيرة من المجتمع بالرغم من تجذّرها في الثقافة العربية الاسلاميّة واعتبارها صفة من صفات الإنسان المسلم.

- الافتقار إلى التّواصل والتّنسيق بين الجمعيّات خاصّة تلك التي تنشط في نفس المجال أو في نفس المكان، وبالتالي صعوبة التشبيك بينها ممّا يؤدّي إلى تشتّت الجهود والقدرات.

من أجل مجتمع مدني ناضج وفعّال

كان من المفروض بروز «المجتمع المدني» كعنصر فاعل ومؤثر في السّياسات العامّة للبلاد نتيجة التّطوّرات السّياسية المحلّية والإقليميّة والدّوليّة التي حصلت في العقد الأخير، وكان بإمكان مكوّناته قيادة المشاركة الشّعبيّة في صياغة سياسات الدّولة وتصبح شريكا لها في عمليّة ترسيخ مقومات الحكم السّليم والارتقاء بالبلاد والعباد وتحقيق الحرية والكرامة والعدالة الاجتماعية على أرض الواقع بصفتها أهداف الثورة. لكن ذلك لم يحصل إلاّ بشكل محتشم في بعض المجالات المتعلقة بحرّية التّعبير ومراقبة العمليّة الانتخابيّة، وإذا ما استثنينا الاتحاد العام التّونسي للشّغل، فإنّنا لم نسمع لبقية مكوّنات المجتمع المدني ركزا.

إنّ بلوغ «المجتمع المدني» مرحلة النّضج والتأثير يتطلّب فترة لابأس بها من التّجارب والمحاولات وتحقيق درجة من استدامة النّشاط وتراكمه، فليس من السّهل تجاوز مخلّفات فترة الاستبداد الذي كان يرى في المجتمع المدني تهديدا مباشرا لقدرته على احتكار السّلطة فشوّه أنشطته ودجّنه وجعله تابعا غير متبوع، وتجسد ذلك في فرض واقع قانوني وسياسي أصاب معظم مكونات المجتمع المدني بعاهات شوّهت عمليّة تأسيسها، وأثّر سلبا على نسق نموّها وعطّل الكثير من طاقاتها، فساهم بذلك بشكل فعّال في تعطيل وتأخير ولادة مجتمع مدني ناضج وفاعل. لكنّ التّجارب والمحاولات لا تفي لوحدها بالحاجة إذ لابدّ من توفّر

مجموعة من الشّروط أهمّها وجود قدرات بشريّة، تصاحبها مهارات وخبرات للتّخطيط الاستراتيجي والتّنفيذ والمراقبة، مع موارد ماليّة «ملائمة» معلومة المصدر وقدرات استجابيّة لمطالب وأولويّات المجتمع.

مازال أمام الناشطين في المجال الجمعياتي عمل كبير وتضحيات جسام لتجاوز المطبّات والصعوبات والنقائص التي سبق ذكرها ليصبح لدينا مجتمع مدني قويّ يتكامل مع مؤسّسات الدّولة كراع ومصدر لتقديم الخدمات بمختلف أصنافها، فليس المطلوب تضخّم عدد الجمعيّات وتنوّعها ليكون لدينا مجتمع مدنيّ فاعل بل المطلوب أن يكون لدينا جمعيّات لديها إمكانية الفعل في الواقع والالتحام بمختلف مكوّنات المجتمع والعمل ضمن أجندة قوامها تلبية الحاجيّات الثّقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة للتّونسيّين. فلا خير في نسيج جمعياتي ضخم الجثّة عديم الفائدة مرتهن في أغلبه للخارج لا يعرف النّشاط إلاّ داخل قاعات مغلقة بالنّزل والمنتجعات الفاخرة. ولا خير في «مجتمع مدنيّ» يصبح ميدانا تنتظّم فيه «الهيمنة» بأدوات جديدة ومختلفة.

لا خير في نسيج جمعياتي ضخم الجثّة عديم الفائدة مرتهن في أغلبه للخارج لا يعرف النّشاط إلاّ داخل قاعات مغلقة بالنّزل والمنتجعات الفاخرة

الهوامش

(1) مصطلح «المجتمع المدني» مصطلح حديث، مرتبط في نشأته واستخدامه المعاصر بالتجربة الغربية بنظمها الثلاث الليبرالية والرأسمالية والعلمانية وتجسداتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. ويرى الكثيرون أن المجتمع المدني نشأ من خلال الصراع الذي خاضته الطبقة المتوسطة (البرجوازية) الأوروبية للفصل بين «المدني» و«الكنسي».

(2) الموسوعة العربية للمجتمع المدني،م.س.ذ، ص ص 45–65.

(3) الوضع مشابه بالنسبة لبقية الدول العربية وإن اختلفت مظاهره بعض الشيء من دولة إلى أخرى

(4) من مهام إفادة رصد واقع النّشاط الجمعياتى وجمع المعطيات والمعلومات والمنشورات المتعلقة به وتوثيقها وإرساء بنك.انظر تقرير إفادة : http://www.ifeda.org.tn

(5) http://www.ifeda.org.tn/stats/arabe.pdf

(6) لمزيد من التفصيل في العلاقة بين الاستراتيجيا والتمويل يمكن الاطلاع على : «د.أماني قنديل، سلسلة بناء قدرات المجتمع المدني العربي، الشبكة العربية للمنظمات الأهلية، القاهرة: 2009».

(7) و**(8)** المرصد الوطني «إيلاف» لحماية المستهلك والمطالبين بالضريبة - دراسة حول الجمعيات غير الحكومية بتونس ما بعد ثورة 14 جانفي 2011

البحري العرفاوي
«شاعر وأديب تونسي»
bahri.arfaoui@yahoo.fr

العالم الإسلامي المعاصر
الحاجة إلى ثقافة إحيائية إنسانية

يعرفُ أعداءُ أمتنا أن العقيدة الإسلاميّة عقيدة إنسانيّة ومجاهدة ...يعرفون ما ترسّخهُ في معتنقيها من عزم وعزّة وبسالة واصطبار... يعرفون أنّها ما ترسّخت في مجموعة إلاّ آخت بينهم وجعلت منهم جسدًا منسجمًا ومتعاضدًا، لذلك يخشونها ولذلك لم يتوقفوا عن ابتداع أساليب تجفيف منابعها وتشريد أتباعها ... نعرف ما الذي حدث للعقائديّين أفرادًا أو مجموعات من إيذاء في الأبدان والأرزاق والأعناق على أيدي الأقرباء والبُعداء ... خصوم العقيدة الإسلاميّة لهم من الإمكانات المادّية ومن العِصيّ وفخاخ القوانين وتقليعات التّأويل ما يكفي لتجريب الأساليب وتمديد الألاعيب وصرف طاقات الأمّة وأوقاتها في نهش نفسها وفي الدّوران حول العمود حتّى الإختناق!

مُصطلحات الحداثة والعقلانيّة والمدنيّة والتّجديد... يُشهرها «مثقّفون» كما السّواطير يَهوُون بها على مصطلحات القاموس الدّيني، يُحَرّضون على المُتدينين وعلى ينابيع العقيدة . «مثقّفون» يشتغلون كاسحات ثقافيّة يُمهّدون الطّريق لمشاريع الغزو ولأنظمة الإستبداد ـ يقبضون من الدّاخل ومن الخارج ـ ولا يتردّدون في استعمال مصطلحات المواطنة والحرّية وحقوق الإنسان! يَرفعون العنوان ويضربون البنيان!!! ولا غرابة

أن تستمع لهؤلاء اليوم يسبقون العقائديّين في «تمجيد» المقاومة ... وفي ذات الوقت يحرصون على تسميم ماءها إذ يَسِمون أبطالها بما لا ينسجم مع مُقتضيات الحداثة والمدنيّة!! لقد ظلّ أولائك عبرَ التّاريخ يُريدون من العقائديين أن يُقاوموا ثمّ... يُسلّموا!! يُسلمون حصادهم إلى القاعدين من أصحاب النّظريات الطّافحة! يودّون أن ينتصر هؤلاء ثم يُعدمون أو ينتحرون! لم يعد العقائديّون اليوم يقبلون بأن يكونوا وقودَ مواقد يتحلّق حولها السّفهاءُ والمساومون ... لن يقبلوا بصبّ دَمهم خارج مسار تاريخ انتصار الأمّة... لن يجلسَ السّفهاءُ في عرين الشّهداء ... يُدركُ الأعداءُ وحلفاؤهم أنّ العقائديّن تعلّموا من تاريخ الصّراع ما يكفي لتحصين دمائهم وإكرام شهدائهم... لذلك هُم مرتعبون ومستعجلون على خوض معارك متعدّدة السّاحات ومتنوّعة الأدوات ... يضربون في الكتاب وفي الجغرافيا وفي الرّموز التّاريخيّة والدّينية وحتّى في حليب الأطفال ولعبهم.

هذه الأمّة أعلى من أن تنحني وأعمقُ من أن يغيضَ ماؤها أو تموت سنابلها أو يفنى ناسُها... «كزرْع أخرجَ شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يُعجبُ الزرّاعَ ليغيظ بهمُ الكُفار». يخشى صُناعُ الخراب ماءَ الحياة يدفق من مفاصل التّاريخ... يعرفون أنّهم لم يُحسنوا صُنعا ويخشون تناسل الأولاد المنتقمين... لذلك يستميتون في تحشيد المُخرّبين وفي إرسال دُخان التّضليل وتوريط الشّعر في العجين يتمنّون أن تضرب الأمّة يمينها بيسارها ورأسَها بركبتيها فلا تقومُ ولا تستجمعُ قوًى ولا تستعيدُ وعْيًا ولا تتأملُ ملامحَ عدوّها ولا تصْحُو من سُبات وأوهام... يتعجّبون أنّها لم تمت! وأنّها كلّما ضُربت اشتدّ عُودُها وكلّما استشهدَ شاهدٌ هاجت من دمه حشودُ الغاضبين... العقائديّون يتناسلون في كلّ أرْض وطأها القاتلون... أنفقَ المتآمرون أموالهم ثمّ كانت وبالاً عليهم ثم يُغلبون بإذن الله ... أنفقوا أموالهم في مشاريع تجريف المشاتل الوطنيّة وفي تجفيف ينابيع العقيدة وشلّ أعصاب الشّباب ودمغ الأدمغة والإيقاع بين الأهل وأهلهم ثمّ يجدُون قاعًا صفصفا أو سرابًا بقيعة!!

«عقيدة الحرّية» المُسْتجمعة من معاني القرآن الكريم حول الإنسان والحياة هي التي تنتفض اليوم على صُنّاع الموت ومُبدعي الخراب ... الفلسفات البارقةُ باهتة ومرتبكة، تتوسّل الجلاّدين بصوت رخوٍ وتدعو الضّحايا إلى ضبط النّفس حفاظا على أرْواح المغدورين !!

«التحرّر» نداء الفطرة الإنسانيّة وليسَ مجرد مطلب أمّة أو ديانة، لذلك تنجذبُ جموعٌ وجماعاتٌ من مختلف مواضع الوجع الإنساني نحو القضايا العادلة ونحو نداءات المظلومين... المظلومون دائمًا هم العربُ والمسلمونَ

اشتدّت الوطأة عليهم كما لمْ تشتدّ من قبلُ وأريدَ بهم كما أريدَ دائمًا سوءًا ولكنّهم الآنَ أبصرُ بخيوط المؤامرة وبوجوه المتربّصين وهم اليوم أغزرُ دمًا وأوسَعُ مدًى وأطوَلُ يدًا... ولهم في الحقّ أنصارٌ كثيرون يسوقهم الله برحمته إلى مواطن الصّراع ينتصرون لنداء الحياة كما لو أنّهمُ الشّموعُ ينسابُ شعاعها في شعاع الشّمس ... تلك روحُ الإسلام تقاوم من أجل الحياة... وسينقشعُ دُخان المعركة على وجه للحياة جميل وعلى قامة للمُقاومين عالية.

الحرية المستعبدة في عصر الحداثة وأمراضها

أ.د.فوزي أحمد عبد السلام
«أستاذ ديناميكا الغضا، بجامعة القاهرة»
f.a.abdelsalam@gmail.com

تعلي الثقافة الغربية من مفردة «الحرّية» كإله لعصر الحداثة، والحقيقة أنّه شعار فقط يخفي وراءه أن الاستعباد هو آلة العصر الحديث، فأنت لاتعدو عن أن تكون ترسا متناهيا في الصّغر مستعبدا في مسارك في آلة جبّارة اسمها الحداثة، وتكتسب قيمتك من التزامك وخضوعك للقوانين المدنيّة «الطّبيعة» من حولك والتي تحولك مع الزمن وبحثا عن الأمثلية في الآداء والإنتاج من حالة الضبط التحكّمي باهظ الثمن ومن المراقبة الخارجية في المجتمع الحداثي إلي حالة الضبط الذاتي والمراقبة الداخلية في المجتمع ما بعد الحداثي وأن تحوي بداخلك برنامجا للتشغيل الذاتي، وهو يعكس الفلسفة الغربية الحديثة بأكملها من أن الله خلق الكون ثم رفع يده عنه تماما وتركه يعمل آليا دون تدخل منه، «تعالى الله عما يقولون علوّا كبيرا».

هذه الحرّية التي تجعل من الحرب على الآخر مباحة دون سبب إلاّ أنّها حتميّة لدوران هذه الآلة الإله، هي إذن ليست حرّية بقدر ماهي استسلام لقوانين الطّبيعة، ومن يتوقّف عن الدّوران في تلك الآلة فليس له إلاّ الانسحاق والفناء.

المجتمعات الحداثية

لا أقصد بالمجتمعات الحداثية تلك المجتمعات التي قطعت شوطا باتجاه التحديث فقط كعملية تحضر يخضع فيها الإنسان الطبيعة لخدمته من خلال صياغته لقوانين يفهم بها حركة الطبيعة من حوله، لكني أقصد بداية جعل الإنسان نفسه كتلة خاضعة لنفس القوانين. هذه الحقبة الزمنية التي تعقدت فيها المجتمعات من ناحية الرّوابط والعلاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان على المستوى الفردي والجماعي مع تدخّل الدّولة كوسيط وأحيانا كطرف اعتباري لضبط تلك العلاقات ابتداء ثمّ الهيمنة عليها لصالح الكتلة المؤثرة في المجتمع ثم انتهاء بعملية برمجة للإنسان كآلة صماء لخدمة القوي. في هذا الجو المركب بالعلاقات والمكهرب بالمجالات لا يمكن أن تتفق رغبات كلّ النّاس بحال من الأحوال، وهذا هو الذي يجعل الحرّية تنتقص كلّما زاد تعقيد المجتمع، فلا بدّ من قيود شئنا أم أبينا وذلك لضرورة العيش المشترك ولعدم إمكانيّة الرّجوع عن طريق التّحضر.

> في المجتمعات الحديثة يكمن فيروس العنف ويبدأ بأجبار النّاس على تقبّل ثقافة السّجن داخل العمل وداخل المدرسة وداخل المستشفي حتّى يصل السّجن إلى داخل النّفس.

في هذه المجتمعات تتآكل الحرّية وتنقص الإنسانيّة داخل الإنسان وتزداد مساحة العبوديّة للبشر وهو المرض اللّعين الذي يصيب المرء حين يحرص على الحياة -أيّ حياة- على حساب المبادئ، وطبيعي جدّا أن يوجد أفراد من هؤلاء في كلّ مجتمع في كلّ زمان ومكان، ولا يضرّ المجتمع وجودهم، فهم كالتّرياق من مرض استرقاق المرء نفسه لغيره من البشر، لكنّهم اذا زادوا عن نسبة محدّدة، كانوا نذير شؤم على المجتمع كلّه.

فيروس العنف الكامن في الحداثة

بنيت المجتمعات الحديثة على المبادئ المادّية الصّرفة للإنسان الغربي، وفي ظلّ تغييب متعمّد «للروح» المكون الميتافيزيائي للإنسان، بدءا من تهميش الإله، إلى تطهير الأرض من ظلال الإله، إلى إعلان موت الإله، وإنتهاء بموت المؤلّف، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. ولضبط هذه المجتمعات من الدّاخل لابدّ من ماكينة تولد سلطة رهيبة تضبط إيقاع الذّرات «أعني البشر»، ووظيفتها اختزال الإنسان فقط في عدد ذرّات الصّوديوم والبوتاسيوم وباقي عناصر الجدول الدّوري الحديث داخل الإنسان، ومن ثمّ في اكتشاف العلاقات التي تحكم هذا العدد.

في هذه المجتمعات الحديثة - ومجتمعاتنا متأثّرة جدا بها - يكمن فيروس العنف ويبدأ بإجبار النّاس على تقبّل ثقافة السّجن داخل العمل وداخل المدرسة وداخل المستشفي حتّى يصل السّجن إلى داخل النّفس[1]، حتّى عبّر عن ذلك صراحة أحد علماء الاجتماع وهو «زيجموند باومان»، بأنّ العنف كامن في فرديّة الحداثة والمسافة الإنسانيّة التي تخلقها العلاقات التّعاقدية في المدينة. في هذا السّياق يبتلع النّاس طوعا أو كرها أطنانا من الأشياء

يبلغ مرض العنف مداه إلى أن يصبح مرض «إبادة الآخر الضعيف» دينا يتقرب به إلى إله الحداثة وما بعد الحداثة.

غير المرغوبة، يبتلعونها لأجل الحفاظ على دخل ومستوى معيشي أو حالة معينة من الرّفاهية، مضحّين في سبيل ذلك بزيادة مساحة التّعاسة والاكتئاب التي تقتحم حياتهم كلّ يوم، يبيضون هذه المساحة السّوداء بزيادة مساحة التّبرير أمام النّفس لكلّ فعل لا يجدون له جدوى، وإذا اختلّت هذه المعادلة وقع صاحبها إمّا فريسة للانتحار إذا زادت مساحة الاكتئاب على مساحة التبرير المقنع للنفس، يؤيّد ذلك تزايد معدلات الانتحار في الدول المتقدمة ذات الدخل الفردي المرتفع، وإما فريسة للسرقة والجريمة إذا استطاع تبرير كل الأشياء غير المرغوب فيها حتى على المستوى الفردي. وفي الوقت نفسه يعلم الناس - وما أبرئ نفسي - أن المسؤول الأعلى يجبرهم على ابتلاع هذه الأطنان من القهر كي يحفظ بذلك كرسيه بل ويمتطي صهوة كراسي أخرى أعلى وهكذا المسؤول الذي فوقه إلى سلسلة طويلة تنتهي في حالة البلدان المتخلفة بالمستعمر المختفي خلف جبال تحضّره وإيهامك أنت أيها الشعب الذي أمتّ نفسك بنفسك أنّ سبب تخلّفك هو ثقافتك عبر سلسلة من الفساد والمفسدين ووكلاؤهم بين ظهرانينا.

وفي البلدان المتقدمة نفس السلسلة الطويلة لكنها تنتهي بأصحاب الرأسمالية المتوحشة المتزوجين سفاحا من السلطة. تلعب البيروقراطية والتقدم التكنولوجي في المجتمعات الحديثة المتقدمة تكنولوجيّا دورا كبيرا في قهر الحرية الإنسانية، يؤكد ذلك كتابات ماكس فيبر، وكتابات هربرت ماركيوز التي أكدت على أن المجتمع التكنولوجي الحديث بدأ يختزل الذات الإنسانية. كما يسجل صمويل هنتنجتون في كتابه «نهاية التاريخ» أن الحضارة الغربية بلغت غايتها وذروتها ومن ثم يسجل بداية انهيار النظام الاجتماعي والأخلاقي لها في كتابه «نهاية النظام» [2].

من العنف إلى الإبادة

يبلغ مرض العنف مداه إلى أن يصبح مرض «إبادة الآخر الضعيف» دينا يتقرب به إلى إله الحداثة وما بعد الحداثة. فمثلا تتعامل الحضارة الغربية مع دول العالم الثالث على أنها الآخر الضعيف الذي يجب إبادته بمنهج القتل الرحيم. و تتمثل منهجية الإبادة في أن يكون دفن الأشياء غير المرغوبة داخل بطون المستضعفين ثقافة مرعية حتى يتم التخلص منها ومنهم، هذه الأشياء ليست بالضرورة جامدة بل تشمل كل ما يطلق عليه شيء. فدفن النفايات النووية الخطرة جدا في أراض المستضعفين هي من هذا القبيل، وحتى يكونوا أصحاب الأيادي البيضاء في إفناء البشر بالموت البطئ والرحيم يجب أن يقدموا معونات ومساعدات وعقود حتى تتسم عملية الإبادة هذه بالحيادية بل وربما تعود بالنفع الظاهر والعاجل على الضحية تماما مثلما صورها شاعر العربية العظيم أبو القاسم الشابي في رائعته «فلسفة الثعبان المقدس»

أنّي إلهٌ، طالَما عَبَدَ الـورى
ظِلّي، وخافوا لعنَتي وعقابي
وتقدَّموا لِي بالضحايا منهمُ
فَرحينَ، شأنَ العَابدِ الأوّابِ
وَسَعَادة النَّفسِ التَّقيَّـــة أنّهـا
يوماً تكونُ ضحيَّةَ الأَربابِ

ومن ذلك أيضا التّخلص من خصوبة الهنود الحمر بتعريض فتيانهم لجرعات خطرة من الإشعاع تؤدّي إلى تعقيمهم واستئصال مبايض فتياتهم، ومن ذلك أيضا دفن الحرّية في أراضينا حتى يتمّ استخراج جيل العبيد الجدد.

> "حين يتفاحش الغنى يطغى صاحبه وحين يصير الفقر مدقعا يذل صاحبه ويصير كلاهما مرض بلا أدنى شكّ وهو مرض الخوف من الفقر للغني ومن شدة وطأته للفقير"

أمراض الغني الفاحش والفقر المدقع

تنتعش الإنسانية في ظل وجود تمايز نسبي بين النّاس، فليس البشر كائنات وحيدة الخلية كلها نسخ لصورة واحدة، لكن هذا التمايز يجب أن لا يكون مثلا من نوع الفارق بين الملائكة والشياطين، فهذا النوع فتاك بالإنسانية أصلا. وعلى هذا فليس للغنى أو للفقر في حدّ ذاتهما أمراض معينة، وبعيدا عن نوعية طعام كل منهما والتي تؤدي إلى أمراض جسدية بعينها، هي من عينة غذائه، فأمراض الغني غنية وأمراض الفقير فقيرة. لكن إذا تعامل الفقير مع فقره بمنهج الكسل والسّخط [3]، وإذا تعامل الغني مع غناه بمنهج الجشع واسترقاق العمال والبطر، فهذا هو عين المرض المؤدي إلى تبرير الغني لذبح الفقراء في مذبح الجشع أو إلي تبرير أكل أموال الناس بالباطل ممّا يؤدّي في النهاية إلى تكوين دولة المستوطنات «قصور فارهة تحميها الجدر العازلة العالية من جماجم الفقراء وأولادهم» أي ولادة هويات جديدة جنسيتها المال. يقول أفلاطون: «إن المجتمع الذي ليس فيه فقراء أو أثرياء سيحظى دائماً بأنبل المبادئ»، وبما أنّه لا يمكن أن يتساوى كلّ النّاس في الفقر والغنى فإنّ المقصود هو التقارب في المستويات أو هو في الشعور الصحي بالآخر، لكن حين يتفاحش الغنى يطغى صاحبه وحين يصير الفقر مدقعا يذل صاحبه ويصير كلاهما مرضا بلا أدنى شكّ وهو مرض الخوف من الفقر للغني ومن شدة وطأته للفقير، ويبدو أن ظهور الفقر المدقع والغنى الفاحش في العصر الحديث هو ناتج بالأساس عن طمع الطبقة الرأسمالية المتوحّشة عبر التعسف في احتساب أجر العامل وسرقة المال العام من جهة، وكسل الآخرين وخوفهم وعدم توحدهم في المطالبة بحقّهم في توزيع الثروة من ناحية أخرى، وتكتمل الحلقة السوداء بمرض لعين آخر يتمثل في تدجين المثقفين ضمن حظيرة النظام. إلى أن يصل المرض بالإنسان الغني كما يقول سقراط: «لقد أصبح الأغنياء ينفرون من سائر الطبقات الأخرى، ويفضلون معه أن يلقوا بثرواتهم في البحر على أن يعينوا بشيء منها المحتاجين» [4] إذن يبدأ مرض الأغنياء بالخوف من الفقر ثم احتقار الفقر ثم احتقار أصحابه ثم استعمالهم كأملاك ويبدأ مرض الفقر من الحرمان المفضي للحسد والحقد ثم التطلع لما في أيدي الأغنياء دون عمل ثم السّرقة.

> الحقيقة أن المجتمعات الغربية عانت من فقد العلاقات الإنسانية المتعلقة بالتضحية والبذل والكرم والعطاء بلا مقابل، تلك العلاقات البعيدة عن المقايضة في العقود

تآكل الحرية الفردية والجماعية

كي يعيش الإنسان سليما معافىً في مجتمع حديث، لا بد له من مقاربة لحلّ لغز تعارض الحرية الفردية مع نظيرتها المجتمعية. فالحرّية الفرديّة هي طريقة الحياة التي يختارها الإنسان لنفسه، أما الحرية الجماعية فهي القواسم المشتركة للحريات الفردية التي تمنع الواحد من الاعتداء على حريات الآخرين وتمنع الآخرين من الاعتداء على حريته، ويتمثل جهد علماء الدين والاجتماع والفلسفة في العمل على تعظيم مساحات التقاطع بين أفراد المجتمع وتقليل مساحات الاختلاف من خلال طرح تفسيرات من شأنها تخفيف حدته وتعديل دفته نحو الاستفادة القصوى منه وتجعل من العيش في ظل الاختلاف آلية للعمل الجماعي الواجب أصلا. وقد تمّ ذلك في الغرب من خلال «العقد الاجتماعي» نتيجة لكتابات جون لوك «الطبيب والفيلسوف وتاجر الرقيق»، وتوماس هوبز وجان جاك روسو صاحب العبارة الشهيرة: «من يهب نفسه للجميع لا يهب نفسه لأحد».

كادت أسطورة العقد الاجتماعي المتمثل في حالة التعاقد الاختياري بين الأفراد لضمان مصالحهم المشتركة أن تكون من سرديات الليبرالية الكبرى أو أحد مسلّماتها التي لا تناقش. يعلن شادويك في تأريخه للفكر الغربي الاستناري أنّه لا يوجد دليل تاريخي على وجود عقد اجتماعي من عدمه والتي دعمت حقوق الشعوب، بل وأسّست الرّابطة السّياسية على الاختيار الحرّ العقلاني[5]. هذه الأسطورة جعلت من الإنسان الغربي في أذهان الكثيرين الإنسان النموذج الذي ينبغي أن يحتذى به، حتى قال أحدهم «ليتنا نكون غربيين حتى بالنجاسات التي في أمعائهم» [6]. والحقيقة أن هذه المجتمعات عانت من فقد العلاقات الإنسانية المتعلقة بالتضحية والبذل والكرم والعطاء بلا مقابل، تلك العلاقات البعيدة عن المقايضة في العقود، وهو يمثل في الحقيقة الرأسمال الاجتماعي المفقود في نموذج الحرية الغربي. لذلك صكّ عبد الوهاب المسيري مصطلح «المجتمعات التراحمية» لعلاج هذا النّقص في النّموذج. وعالجة طه عبد الرحمن بنظريته التي يسميها «النظرية الميثاقية»، لكن هذه المرّة ليس بتعاقد بين الإنسان والإنسان، بل بين الله والإنسان. فإذا كانت نظرية التعاقد تدّعي أن الحالة الأولى للبشرية تجري في هذه الحياة المرئية، وعلى حد تعبير طه عبد الرحمن: «في العالم الملكي، حيث الاتفاق يجري بين الأجسام، فقد سبقتها مواثقة أخرى جرت في عالم الملكوت، حيث كان الإنسان يتصرف بروحه لا بجسده، وهي المرحلة الأصل التي نسيها الإنسان، بل قام بخيانتها»[7].

الاستبداد فيروس الحرية

ثمة فيروس آخر لتآكل الإنسانية داخل الإنسان وهو الاستبداد. فحين يسود الاستبداد يعم النفاق ويسعى كل فرد إلى التقوقع حول احتياجاته، فإمّا أن يسكت لأنّه يخاف أن يبدي رأيه فتصيبه منه معرة وتتضرر

احتياجاته، أو لأنه يشعر أن الكلام ليس له قيمة، وإمّا أن يتكلم بكلامٍ الصمت أبلغ منه، ليملأ به الفراغ فحسب، من قبيل أن الماكينة تعمل لكيلا تصدأ أجزاؤها وليس لكي تنتج، أو من قبيل أن يسمع ويشعر رب العمل بأنّه موجود ومتفاعل. وإما أن يفند وينتقد ويبدي رأيه المعارض لكن لا يخرج عن كونه مبيض وجه الاستبداد القبيح. فلك الحرية كلّ الحرية أن تنتقد الأطراف لكن إيّاك أن تنتقد القلب. أمّا من يجرؤ على النّقد خارج هذه المنظومة المغلقة فليكن مستعدّا لأن يقدّم عنقه ثمنا لرأيه.

> **"ثمة فيروس آخر لتآكل الإنسانية داخل الإنسان وهو الاستبداد. فحين يسود الاستبداد يعم النفاق ويسعى كل فرد إلى التقوقع حول احتياجاته"**

الهوامش

[1] راجع كتابات ميشيل فوكوه عن المعاقبة والمراقبة: ولادة السجن.

[2] السيد عمر وآخرون، موسوعة التنشئة السياسية الإسلامية: التأصيل والممارسات المعاصرة - المجلد الأول، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (2013)

[3] السخط ليس هو عدم الرضا وإنما هو عدم الرضا بقدر الله

[4] محمد عثمان شبير، المدخل إلى فقه المعاملات، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، (2010)

[5] هبة رؤوف عزت، مقالة بعنوان «قضايا وأبحاث الفكر والثقافة»، موقع د.هبة عزت الإلكتروني.

[6] https://www.goodreads.com/author/quotes/2830962

[7] محسن المحمدي، مقالة بعنوان «موت الإنسان المعاصر عند طه عبد الرحمن في نقد نظرية التعاقد الاجتماعي (2017).

امحمد الخوجة
«متخصص في تدريس العلوم الشرعية. المغرب»
khoujafes2015@gmail.com

نريد الإصلاح ولكن...

من سنن الله عزّ وجلّ أن تحدث للأمم والشّعوب كبوات، تؤثّر على مسيرتها الحضاريّة، ولذلك نجد منذ القدم أمما ضَعفت حالتها الاقتصاديّة والثّقافية والاجتماعيّة، بمجرد تفريطها في بعض الرّكائز والمقومات والآليات التي كانت تقوم عليها حضارتها. ولقد ذكّرنا التّاريخ بأمم أبيدت وانتهى أمرها، وأخرى استعادت عافيتها وحيويتها بعد جهد كبير وإصلاح عميق وتغيير جذري وشامل، لأجهزة التّحكم والتّسيير.

يحتاج «الإصلاح» إلى معاناة وصبر وطول نفس، فالفراشة ما صارت فراشة بألوانها الزّاهية، إلاّ بعد معاناة التّخلّص من الشّرنقة، والوليد لم يصبح بالغا، راشدا، إلاّ بعد اجتياز مراحل صعبة وعسيرة، ليشتدّ عوده في النّهاية. ومنه نستفيد أنّ الحياة، تعجّ بالدّروس التي يمكن أن نستلهم منها، قيم الإصلاح والتّغيير إلى الأفضل ونخلص إلى أنّ الإنسان المسلم، لا بدّ له أن يتبنّى منهجا في الإصلاح يعتمد من ناحية على تدبّر الأسرار، والظّواهر التي تحدث في الكون، على مستوى الطّبيعة والحيوان، بل وحتّى على مستوى الحشرات، ومن ناحية ثانية يرتكز على الصّبر وتقبّل الاختلاف واتخاذ القرار المناسب بعد التّشخيص

والمعاينة وهو منهج رسول الله صلى الله عليه وسلّم الذي هو منهج ربّاني في الغالب، مستمدّ من الوحي الإلهي.

اتخاذ متسع من الوقت

يحتاج «الإصلاح» إلى وقت طويل، وعدم السّقوط في مطبّة الاستعجال ومحاولة قطف الثّمار قبل نضجها، ولنتذكّر المهلة التي اعتمدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتّى يكثر عدد الرّاغبين في الإصلاح، مع العلم أنّ اتخاذ الوقت الكثير ينبغي أن تصاحبه برامج ومقترحات وخطّة عمل، يسهم في إنجاحها الجميع، كلّ من منطلق مكانته ومسؤوليته.

> إن اتخاذ القرار من أجل التغيير والإصلاح، يتطلب الواقعية وتشخيص مكامن الخلل، بدقة متناهية، واعتماد الجرأة الكافية.

اتخاذ القرار، وتشخيص مكامن الخلل.

ثم إن اتخاذ القرار من أجل التغيير والإصلاح، يتطلّب الواقعيّة وتشخيص مكامن الخلل، بدقّة متناهية، واعتماد الجرأة الكافية، وخذ كمثال على ذلك الجهر بالدّعوة من طرف رسول الله صلّى الله عليه سلّم، فهو عندما شخّص مكامن الخلل المتمثّل في الانهيار الأخلاقي والعقدي، عندئذ بدا واضحا أنّ الأهداف يمكن تحقيقها، فلجأ إلى شيء من الجرأة لاتخاذ القرار، والإفصاح عن الهدف الذي كان يعمل على تحقيقه.

الاعتناء بمن لهم الرغبة في الإصلاح.

قد لا نغالي إذا ما جزمنا بأنّ العناية بمهمّة «الإصلاح» ينبغي أن يعتمدها ويتبنّاها من لهم الرّغبة الجامحة في التّغيير إلى الأفضل، وانظر إلى منهج الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وصحابته، لتجد أنّهم كانوا حريصين على العناية بمن يريد أن يسهم في الإصلاح سواء بالمال أو النّفس أو غير ذلك، دون اللّجوء إلى فرض القوّة والقهر وسلب الأموال، وذلك بغية الانخراط الكلّي والشّامل، في تحقيق الإصلاح، وقد عاينّا هذا على مستوى أغلب القريشيين، حينما انخرطوا في طلب الإصلاح، مع معارضتهم له في أوّل الأمر، فاعتنى بهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، أيّما اعتناء.

ولعلّ أسلوب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، كان واضحا على مستوى هذا الاتجاه، إذ كانت دعوته لا تعتمد على حرب ولا على قتال، وسفك دماء، اللّهم إن منعه مانع جاحد، من عدم إبلاغه دعوة ربّه.

تبنّي مبدأ الاختلاف، وقبول الرّأي الصّائب

وهذا من أهم الأسس التي ينبغي تبنّيها، إذًا لا يمكن قيام حضارة دون اعتبار هذا الأساس، إذ من خلاله تتكرّس قيم الانفتاح على الآخر، وتتوطّد العلاقات بين المجتمعات والأفراد، وتتلاقح الأفكار منتجة أساليب وطرقا تسهل العيش، وتنشر الحياة، وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تعج بأمثلة كثيرة على هذا الصّعيد، كقبوله فكرة سلمان رضي الله عنه في حفر الخندق، وهو فارسي الأصل، قادم من بلاد الفرس.

الخلاصة

يحتاج الإصلاح إلى أسس كثيرة، على رأسها قبول الرّأي الصّائب والاختلاف مع الآخر- وإن ذكرناه متأخّرا- كما أنّه من بين أسس الإصلاح، تخصيص الوقت الكّافي، واتخاذ القرار عندما تتهيأ الظروف لذلك، مع الرّعاية والعناية بمن يريد الإسهام في الإصلاح، سواء كان سياسيّا، أو كاتبا مفكّرا، أو مدرّسا يجتهد في إصلاح النّشء...

فإذا ما تحقّقت تلك الأسس، وتمّ الاقتناع بها، تكون الرّغبة قد استحوذت على أذهان عناصر المجتمع قاطبة، بغية تكريس الإصلاح، إلاّ أنّنا- نحن معشر المسلمين – نريد الإصلاح على مستوى كثير من المجالات، وندندن به، ولكن في الغالب الأعمّ، لا نعتمد إلاّ أسسا غربيّة، أغلبها لا يليق بأرضيتنا، ولا يتماشى مع عاداتنا وأعرافنا.

> **يريد المسلمون الإصلاح لكنهم في الغالب الأعمّ، يعتمدون أسسا غربيّة، أغلبها لا يليق بأرضيتنا، ولا يتماشى مع عاداتنا وأعرافنا.**

08 مارس

اليوم العالمي للمرأة

بمناسبة اليوم العلمي للمرأة تحيّة إكبار وتقدير لما قدّمته المرأة الفلسطينيّة منذ نشأة الكيان الصهيوني ومازالت تقدّمه من تضحيات جسام من أجل تحرير فلسطين، كلّ فلسطين ودحر الغاصبين...

تحيّة إلى السجينات المناضلات اللاتي يقبعن وراء القضبان في سجون الاحتلال ...

تحيّة إلى النساء الصامدات المعتصمات فوق أنقاض منازلهن التي هدّمها المستعمر ...

تحيّة إلى الشابات اللاتي تحدين سلاح المغتصب ورفعن راية فلسطين ...

حديث في السياسة مع جيران متحزبين

د.الخامس غفير
«أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي - المغرب»
elkhamisghafir@gmail.com

علّمنا الحبيب المصطفى آدابا وأخلاقا ينبغي أن نتحلّى بها مع من نعرف ومن لا نعرف، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ قَالَ تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ، بل أكثر من ذلك دلّنا الحبيب المصطفى عليه أزكى الصّلاة و التّسليم على أبواب عدّة للخير من بينها : إفشاء السّلام ، والابتسامة ،.....

ولهذا كنت كلّما خطوت خطوة إلى المسجد، وممرت بمقرّهم كنت أبادلهم التّحيّة، فأسلّم على بعضهم، ممن أعرف وممن لا أعرف، ولا أخفيكم سرّا أنّني كلّما سلّمت على أحدهم إلاّ وينتابني شعور غريب. لكن ما كان يثيرني هو ذلك الجمع الغفير من الرّجال والشّباب في أوقات محدّدة من اليوم، وكأنّي بهم يختارون موعد اجتماعهم زمن عودة النّاس أو المارّة إلى بيوتهم أو خروجهم منها لقضاء مأربهم.

وقبل أن تسترسلوا في التّساؤل، ما الذي تريد قوله؟ أقول لكم إنّ من حقّ أيّ إنسان أن يختار الاختيار الذي يريده، ومن حقّ الإنسان أن يكون مرفوع الهامة، ويمشي منتصب القامة وهو يعبّر عن مواقفه، ويسير بمنتهى الثقة ويتحدّث بصوت الواثق في برنامجه ويدافع عن مبادئه وقيمه .

نعم ، أحسب نفسي أيضا من هذه الطّينة، بل أكثر من ذلك فأنا في النّهاية رجل من هذه الأمّة، وأعتزّ بمغربيتي وأفتخر بقيمي، بل تشرّبت بصحبة الخلاّن معاني العزة، واستقرت في أذناي منذ عرفت الحقيقة، قيم من قبيل «العزة»، و«الكرامة» و«العدالة»، و«الأخلاق»، لكنّي مع كلّ موسم من المواسم الرّسميّة لا أفهم نفسي، ولا أعي جيّدا لماذا تنفر نفسي من هذه العبارات كلّما وصلت إلى مسامعي بصوت عال، وبموسيقى صاخبة، وبهرجة ورقص، أبتعد عنها كلّما تمّ التّرويج لها بالطّبول و«الغياطة» و«العياشة» و«البلطجة»...

إنّ بعض المنتسبين إلى بعض الأحزاب ودكاكينها الموسميّة من تجار الانتخابات، الذين يتحدّثون عن الدّيمقراطية وحقوق الإنسان، هم مجرّد ببغاوات يردّدون عبارات رنّانة، ومصطلحات طّنانة، يتخلّون عنها عند انتهاء الحملة الانتخابيّة

لقد قادتني معرفتي ببعض الأحزاب ودكاكينها الموسميّة، وببعض المنتسبين إليها من تجار الانتخابات، والذين يتحدّثون عن الدّيمقراطية وحقوق الإنسان، أنهم مجرّد ببغاوات يردّدون عبارات رنّانة، ومصطلحات طّنانة، يتخلّون عنها عند انتهاء الحملة الانتخابيّة، وينسونها بمجرد تلقّيهم تقطيبة حاجب، ونظرة ناظر من المخزن العجيب والغريب، بل يسيل لعاب بعضهم لامتياز بسيط ووعد كاذب، كسيلان صاحب «بافلوف» لمثيره الخارجي.

تستطيع أن تجلس في وسط جوقة من بعض رجال الانتخابات دون أن تعبّر عن انتمائك، ومن دون أن تعبّر عن أفكارك حتى تكتشف الحالة المعروفة عند البادي والعادي، أنّ سبب اجتماع هؤلاء ليس على برنامج حقيقي، ولا على خدمة الوطن وأبنائه، بل تصل مباشرة إلى أن الهمّ الحقيقي والمشترك عندهم هو المصلحة الشخصيّة، والمائة والمائتي درهم هي الهدف، والمنصب المالي هو الغاية والمبتغى...

إنّنا في وجود هذا الجوّ، لا نبدّل من قناعاتنا، ولا ينبغي أن نضع مقصّ الرّقابة على عباراتنا، ولا يصحّ أن نرتدي ثياب الممثّل البارع ، كما لا يحقّ لنا أن نلعب دور الفنّان المخادع، ولا نتقمّص دور المجامل الفارغ، بل الواجب هو أن نسميّ الأسماء بمسمّياتها ونقول للباطل باطل، وللانتخابات المغربيّة مسرحيّة وكفى.

وبالعودة إلى الحدث، مرّت الأيام وأنا على حالي مع أصحاب المقرّ من جيراني، أسلّم عليهم، أبادلهم التّحية، وهم كذلك يبادرون في كثير من الأحيان، بل ذهب بعضهم إلى المبالغة في مجاملتي، وأقدّر لهم صنيعهم، وأحترم فيهم أدبهم معي .

وأنا على نفس العادة، فإذا بأحدهم يناديني بصوت عال: «أستاذ، أستاذ» ..التفت اليهم مبتسما ومرحّبا. فقال: «تعال اجلس معنا قليلا». تدخل الأخر : «نعم اجلس معنا، مرحبا بك».

أجبتهم بهدوء: « شكرا جزيلا ، معذرة أنا مشغول الآن» . فقال أحدهم: «نعم، هذا الأستاذ يسلّم علينا، ويمرّ علينا مرور الكرام».ابتسمت مجاملا : «اسمحوا لي أنا مشغول ولي التزامات كثيرة». فكانت

> **لسنا ضدّ الممارسة الحزبيّة النّبيلة التي تفكّر في مصير البلاد والعباد وتسعى إلى توسيع هامش الحرّية وتؤمن بحق التداول الدّيمقراطي في ممارسة السّلطة الفعلية عبر التدبير والتسيير والاقتراح والتأطير.**

إجابتهم: «لا،لا اجلس معنا وخذ لك كأس شاي، إنّنا نحترمك ونقدرك». قلت : «بارك الله فيكم ولكن لنتركها لوقت أخر».

لا أخفيكم سرّا وجدت نفسي في منطقة مريبة، وفي ساحة ملتبسة، التي من الصعب تحديد من سيكون اللاعب الماهر فيها، ولا من سيكون القادر على مداراة من فيها وما تحمله من مفاجأة، الرابح هنا هو الذي يجيد حسن التّخلص كما يحكي أصحاب «التّواصل الفعّال».

الجرئ منهم، توجه إليّ بسؤال كنت أنتظره، وهذا هو الواقع لأنّنا في فترة معينة، وفي زمن محدّد، وأمام فضاء معلوم، قال لي : «من أي حزب أنت؟» وقال صديقه الذي يرافقه في عمليّة «الاستقطاب السّياسي»: «لمن ستصوّت ؟». قلت وأنا أتمتم مستغربا: «لندع هذا النقاش للقادم من الأيام».

بدأت الثقة تظهر على محيّا بعضهم بل الكثير منهم، وقال لي زعيمهم: «نحن من حزب (....)، لنا ولنا، وسنقوم بـ (....)». تبسمت، وقلت: «معذرة، عليّ أن أذهب حالا وعلى وجه السّرعة».

وفي لحظة، اعتقدت أنّ النّقاش قد انتهى، بادرني الرّجل الأول: «هل أنت من حزب كذا وكذا؟». قلت مختصرا الجواب: «لا، ثم لا داعي للتوضيح» .

وقال لي منتشيا: «المهمّ صوّت لحزبنا، فهو الأقدر على تطبيق برنامجه وخدمة ناخبيه». كانت هذه العبارة كافية لأنجر إلى نقاش كنت أرغب في تجاوزه، نظرا للظّرف والمكان، وحتّى لا أشوّش عليهم، بالرّغم من أنّني كرّرت على مسامعهم لندع النّقاش إلى ما بعد الانتخابات ....

فالحاصل، دخلت معهم في حديث مقتضب جدّا وقلت متسائلا: «استحلفكم بالله، هل بإمكان أيّ حزب في المغرب أن يطبق برنامجه السياسي؟». قالوا: «لا يمكن». قلت: «هكذا إذن سنكون قد خذلنا من وضع ثقته فينا». ثمّ سألتهم: «هل بإمكان أيّ حزب سياسي أن يشكّل حكومة بمفرده وبالاعتماد على إمكاناته الذّاتية، وعلى « كوادره» الحزبية؟»،قالوا: «هذا مستحيل».

قلت: «إذن لا يمكن لأيّ حزب بمغربنا العجيب أن يفوز بالأغلبيّة التي تخوّل له تشكيل الحكومة». قالوا: «أجل هذا صحيح». قلت: «إذن،لا يمكن الحديث بالبتّ والمطلق عن التّعاقد مع الشّعب، ولهذا فالفعل السّياسي لا يقتصر على المشاركة الانتخابيّة فقط».قالوا: «نعم» وباستغراب تام.

قلت: «لا بدّ إذن من التّمييز بين المشاركة الانتخابيّة والمشاركة السّياسية». قالوا: «وكيف ذلك؟ مزيدا من الوضوح». قلت: «قد تكون مشاركا انتخابيا ولست مشاركا سياسيا، لأنّك في النّهاية ستطبق برنامجا ليس ببرنامجك، هذا إذا سلّمنا أنّك شكلّت الحكومة وعقدت العزم على العمل والفعل والإصلاح من داخل المؤسّسات، ولكن في المقابل قد تكون مشاركا سياسيّا (والأمثلة كثيرة وشاهدة على ذلك)

ولست مشاركا انتخابيا ولا من داخل المؤسّسات».

في هذه اللّحظة التي اشتدّ فيها النّقاش، وجدت نفسي أتحدّث إلى جموع غفيرة من داخل حزبهم وأمام عدد كبير من أعضائهم.

توقّفت عن الحديث وتركت لهم حقّ الرّد، ولم أحتكر الكلام في القضايا السّياسية، ومصير بعض الأحزاب السّياسية، بل جعلت النّقاش مرنا، فيه أخذٌ وعطاء، وقبول ورفض وردّ، لأنّه يبقى في النّهاية رأي وتقدير أعتقد أنّه الأنسب والأصلح في ظلّ غياب المراقبة النّزيهة لعملية الانتخابات، وفي ظلّ تحكّم الأجهزة المخزنيّة في دواليبها ومسارها الدّيمقراطي، ولعلّه أمام هذا المشهد من العبث بأموال وعقول المغاربة بات الحلّ الأمثل هو المقاطعة لكلّ أطوار العمليّة درءا للمفاسد الجمّة التي تهدّد البلاد .

"من المعلوم بالضّرورة في مجال السّياسة المغربيّة أنّ المهندس الفعلي لمشهدنا السّياسي عموما، ولمشهدنا الانتخابي على وجه الخصوص ليس بشبح ولا تمساح، وليس بجنّ أو عفريت، بل إنّه منّا ومن بني جلدتنا"

إنّنا ندعو إلى مقاطعة الانتخابات، فقط لأنّنا نعتقد جازمين بأنّها لن تكون نزيهة ولن تخدم مصالح الشّعب المغلوب على أمره طالما أنّها ليست بيده، بل بيد غيره من أزلام نظام لا يعرف للدّيمقراطية طريقا، بل نظام يعيد تشكيل نفسه ويكرّر ذاته، إمّا بنفس الآليات أو بوسائل مختلفة تتماشى وعصره .

إنّ الدّعوة إلى مقاطعة الانتخابات هي دعوة للقطع مع الفساد والاستبداد والالتفاف على مطالب الشّعب المغربي، ودعوة إلى الحسم مع مؤسّسات معيّنة وغير منتخبة تمارس سلطتها وهيمنتها على مؤسّسات منتخبة، وهذا يعنى أنّنا لسنا ضدّ مقاطعة الأحزاب ولن نكون في يوم من الأيام ضدّ العمل الحزبي الذي يتمتّع بكافة الحقوق والحرّيات، ولن نختلف مع الممارسة الحزبيّة النّبيلة التي تفكّر في مصير البلاد والعباد وتسعى إلى توسيع هامش الحرّية وتؤمن بحق التّداول الدّيمقراطي على ممارسة السّلطة الفعلية في التدبير والتسيير والاقتراح والتأطير...

هكذا إذن، أجمعوا في النّهاية على أنّ الحقيقة لا يمتلكها أحد، وأنّها ليست مطلقة، والاختلاف في الرّأي لا يفسد للودّ قضيّة، والواقع واضح وجليّ ولا يرتفع . والحقيقة التي بتنا نؤمن بها جميعا هي أنّ المتحكّم في مصير البلاد والعباد معروف. ومن المعلوم بالضّرورة في مجال السّياسة المغربيّة أنّ المهندس الفعلي لمشهدنا السّياسي عموما، ولمشهدنا الانتخابي على وجه الخصوص ليس بشبح ولا تمساح، وليس بجنّ أو عفريت، بل إنّه منّا ومن بني جلدتنا .

وقبل أن أغادرهم لكي أتوجّه في سبيلي، صاح أحدهم وبصوت مرتفع: «نعم إنّي أعرف هذا الأستاذ جيّدا ، إنّه (.....)». ابتسمت في وجوههم وغادرت المكان على أمل انتظار القادم من الأيام بعد الانتخابات الهزليّة.

عمارة المدن و القيم في الحضارة العربية الإسلامية

محمد العشي
«شاعر وكاتب تونسي»
med.echi15@gmail.com

العمارة هي قبل كلّ شيء شأن هندسيّ يتمثّل في تدخّل الإنسان مستعملا ما يتاح له من موادّ أوّليّة كالحجارة والطّين والخشب والحديد والزّجاج لإقامة منشآت تستجيب لحاجاته الماديّة والمعنويّة كالحاجة إلى التّوقّي من الحرّ والبرد والحاجة إلى ممارسة طقوس العبادة الجماعيّة في المعابد أو للتّرفيه في فضاءات عامّة مثل الملاعب والمسارح أو لاقتناء الحاجيّات في الأسواق أو لإكرام الأموات في المقابر والمزارات والأهرامات...

و يحفظ لنا التّاريخ التّجارب البشريّة التي تطوّرت فيها العمارة من بيوت الطّين و القصب إلى بيوت الخرسانة و ناطحات السّحب. وليست غاية هذا المقال رصد التّطوّرات الهندسيّة في علاقتها بتطوّر المواد الأوّليّة وتطوّر المعرفة العلميّة والتكنولوجيّة، بل غايته بيان العلاقة الوطيدة بين الهندسة كنشاط بشري يمارسه الإنسان لسدّ حاجيّاته اليوميّة والمعيشيّة وبين الهندسة كنشاط يعبّر من خلاله الإنسان عن تمثّلاته للكون والحياة والإنسان ولموقعه في هذا الوجود ودوره فيه ولعلاقته بالطّبيعة وما وراء الطّبيعة، أي باختصار عن علاقة الهندسة بالثّقافة وعلاقتها بالقيم الحضاريّة المشتركة.

لقد دأب الإنسان منذ بدأ محاولاته الأولى في العمارة والتشييد في عهود البابليّين

والكلدانيّين والفراعنة والإغريق على الرّبط الواضح بين المنشآت المعماريّة من ناحية والمقدّسات الدّينيّة من ناحية ثانية ونلمح ذلك بوضوح في المعابد والأهرامات، ولكنّ سائر البيوت والمنشآت الأخرى لم تخلُ بدورها من تأثير ثقافي، قيمي. وهذا ما سنحاول تبيّنه في إطار خصوصيّات العمارة العربيّة الإسلاميّة. وسننطلق في ذلك من نموذج دالّ يتمثّل في فضاء المدينة/القرية، محاولين تبيّن الخيط الرابط بين المعمار والقيم.

> **وجود المسجد الجامع في قلب المدينة لم يكن أمرا اعتباطيّا، بل هو استجابة لتصوّر محدّد للحياة ولموقع الإنسان في الكون**

من المعلوم أنّ أوّل مدينة أسّسها المسلمون هي «المدينة المنوّرة» التي أنشئت على أنقاض يثرب، وقد كانت أوّل خطوة قام بها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم هي تأسيس المسجد النّبوي الجامع، الذي سريعا ما تحوّل إلى الإطار الأوّل للنّشاط الاجتماعي والثّقافي في المدينة، فالمسجد هو المركز الأساسي للقاء المسلمين كلّ يوم وهو مركز تلقّي العلم الشّرعي وتعليمات الوحي عن النّبي صلّى الله عليه وسلّم كما أنّه مركز اتخاذ القرارات السّياسيّة الهامّة مثل إقرار السّلم أو إعلان الحرب... ومن الطّبيعي والحالة تلك أن يكون المسجد الجامع القلب النّابض للمدينة وقطب الرّحى الذي تنتظم داخله ومن حوله كلّ المناشط الاجتماعيّة بدءًا بالتّعليم فالتّجارة فالصّنائع وانتهاء بالسّكن. فالمسجد الجامع في المدينة/القرية الإسلاميّة هو بمثابة النّواة التي تدور حولها إلكترونات المجتمع.

وعند انطلاق المسلمين في الفتوحات أسّسوا مدنا جديدة بعضها كان قبل ذلك قرى صغيرة وبعضها أنشئ إنشاء مثل البصرة (14هـ) والكوفة (17هـ) والفسطاط (21هـ) والقيروان(50هـ)... وقد اختار الفاتحون في كلّ المدن/القرى التي أسّسوها أن يكون المسجد الجامع في مركز المدينة ومحورها ثمّ أن تحيط به دائرة الأسواق فدائرة المنازل فدائرة الصنائع.

ووجود المسجد الجامع- أي الكبير الذي تقام فيه صلاة الجمعة- في قلب المدينة لم يكن أمرا اعتباطيّا من قبيل الصّدفة، فهو بدءا كان اتباعا لما فعله الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في المدينة من باب أنّ تصرّفاته هي جزء من الوحي والتّشريع، كما كان استجابة لتصوّر محدّد للحياة ولموقع الإنسان في الكون؛ فالمسلم يحرص دائما على الموازنة بين الشّأن الرّوحي و الشّأن العملي، بين دواعي الدّنيا ودواعي الآخرة، بين التّصرّفات اليوميّة البشريّة النّسبيّة و بين القيم العليا التي ضبطها الوحي المتعالي...

وإذا كانت الوظيفة الأولى للمسجد الجامع هي تمكين عموم المسلمين من أداء فريضة الصّلاة بشكل جماعي، فإنّها لا تخلو من وظائف أخرى لها علاقة مباشرة بعالم القيم في فضاء المدينة/القرية.

أولى تلك الوظائف أنّ إقامة الصّلاة وخاصّة بالمسجد تساعد على مقاومة نوازع الشرّ والجريمة في نفس الإنسان، وقد ورد في سورة العنكبوت قوله تعالى « اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ

> المسجد الجامع طرفا مهمّا في إقرار السّلم الاجتماعي وفي مقاومة مظاهر الانحراف والجريمة، وفي سيادة حالة من الأمن والطمأنينة داخل فضاء المدينة/القرية

تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ»[1]. ومرتاد المسجد مطالب بأداء صلاة الجمعة التي تتضمّن عادة تذكيرا بالفضائل ودعوة إلى الامتناع عن أنواع الرّذائل والمنكرات مثل السّرقة والرشوة والاعتداء على أموال اليتامى والاعتداء عل الأعراض قولا أو فعلا...

ولا يكون النّهي عن الفحشاء و المنكر عبر خطب الجمعة فقط، بل يكون أيضا عبر قراءة القرآن وتدبّر آياته الكثيرة التي تدعو إلى الالتزام بمكارم الخلق وفضائل الأعمال. وكثيرا ما يوفّر المسجد فرصة لتداول معاني تلك الآيات مع أهل الذكر والمعرفة.

ويمكن أن ننظر إلى المسألة من زاوية نفسيّة/اجتماعيّة فنقول إنّ مرتاد المسجد يقيم علاقات تعارف وتحابب وأخوّة مع سائر المصلّين. وتتحوّل تلك العلاقات تدريجيّا إلى نوع من الرقابة الداخليّة التي تجعل الفرد يمتنع عن المنكر حتّى لا تهتزّ صورته الإيجابيّة التي صار معروفا بها في المسجد.

وقد يحصل أن تتغلّب نوازع الشرّ على أحدهم فيجعل ارتياد المسجد قناعا لإخفاء حقيقته ومخادعة الآخرين. غير أنّ ذلك القناع لا يمكن أن يستمرّ طويلا لأنّ الذي يخطئ في حقّ الآخرين لا بدّ أن يُكشف أمره. وفي هذه الحالة فهو سيواجه رفض الجماعة في المسجد، فإمّا أن يتوب ويقلع عن أخطائه وإمّا أن يُعزل ويصبح مثل «البعير المعبّد».

الوظيفة الثانية التي لها علاقة بالقيم والتي يؤمّنها المسجد هي وظيفة التّكافل والتّآزر والتّماسك الاجتماعي وخاصّة في أوقات الشدائد والأزمات. ففي المسجد يعرف النّاس بعضهم ويتعاونون في مناسبات كثيرة في السرّاء والضرّاء؛ فقد يتعاونون لتأمين نفقات زواج أحدهم أو لمساعدة مريض في توفير مصاريف العلاج أو لتوفير ما يدخل الفرحة على أبناء أحد الفقراء في يوم العيد... وإضافة إلى ذلك كثيرا ما يكون المسجد إطارا لفضّ بعض النّزاعات الاجتماعيّة التي تحصل مثلا بسبب شطط في القول يؤدّي إلى تباغض وقطيعة... وتتمّ المصالحة عادة بتدخل الإمام أو الفضلاء من روّاد المسجد...

وفي هذا السّياق يكون المسجد الجامع طرفا مهمّا في إقرار السّلم الاجتماعي وفي مقاومة مظاهر الانحراف والجريمة، وفي سيادة حالة من الأمن والطمأنينة داخل فضاء المدينة/القرية.

ويتعزّز دور الجامع في فضاء المدينة الإسلاميّة بجملة من القيم التي حرص الإسلام على تثبيتها في المجتمع مثل التسامح والمحبّة وحسن الجوار. وقد رُوي في ذلك المعنى الحديث المشهور «مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيُكرِمْ جارَهُ، ومَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ فلْيُكرِمْ ضَيْفَهُ» [2]

وترتبط معاني حسن الجوار والمعاشرة الطيّبة بتخطيط البيوت في المدينة/القرية حيث تكون البيوت

متلاصقة وتكون الطرقات داخل الحيّ السكني ضيّقة. فلا مناص من أن يتعرّف الجيران على بعضهم البعض، وأن تنمو بينهم العلاقات الاجتماعيّة التي كثيرا ما تتّخذ أشكالا مختلفة من التّعاون والتآزر في السرّاء والضرّاء حيث يتحرّك الجميع كالجسد الواحد في المآتم والأفراح وما شابه ذلك من المناسبات، فلا يجد الفقير عنتا في تجهيز جنازة ولا في تحمّل نفقات عرس. ولا شكّ أنّ ذلك ينسجم مع قيم التّكافل التي نجد صداها في الحديث النّبوي المعروف «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادّهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى» [3]

> **إنّ مدينة تقوم العلاقات فيها على قيم التّعارف والتّعايش والتّكافل ويأمن فيها الفرد على نفسه وماله وعرضه، لهي جديرة أن تنخفض فيها الجرائم إلى درجة تقارب الصّفر**

ولا يمكن لمدينة متقاربة المنازل أن تسود فيها قيم التّعايش السّلمي والتآزر الاجتماعي إلاّ إذا آمن أفرادها بحقّ كلّ فرد في المدينة في الاطمئنان على نفسه وماله وعرضه «إنّ دماءكم وأموالكم و أعراضكم عليكم حرام» [4]

وتحصينا لأهل المدينة الواحدة من أخطار الفتن والاحتراب الدّاخلي على أسس عرقيّة أو طائفيّة أو مذهبيّة أكّدت القيم الإسلاميّة على أهميّة التّعارف بين الشّعوب والقبائل رغم اختلافاتهم الكثيرة في العادات وطرق العيش حتى يتحوّل الاختلاف إلى عامل إثراء وقوّة و ليس إلى عامل انقسام وفتنة. وصار المقياس الحقيقي للتفاضل بين النّاس ليس اللّون أو الحسب أو المال بل الفضائل المعنويّة والارتقاء الأخلاقي. وقد جاء مصداق ذلك في خطبة حجّة الوداع [5] « يا أيّها النّاس ألا إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلاّ بالتقوى، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [6]

إنّ مدينة مثل هذه تقوم العلاقات فيها على قيم التّعارف والتّعايش والتّكافل ويأمن فيها الفرد على نفسه وماله وعرضه، لهي جديرة أن تنخفض فيها الجرائم إلى درجة تقارب الصّفر وخاصّة في جرائم السّرقة والنّهب والاغتصاب، كما تحقّق لنفسها حاجزا معنويّا متينا يقيها من شرّ الفتن التي تقسّم النّاس على أسس طائفيّة وعنصريّة وتدفع بهم إلى التّطاحن والتّقاتل «والفتنة أشدّ من القتل» [7]

ومن القواعد الأساسيّة التي تقوم عليها هندسة البيوت وغيرها من المنشآت في فضاء المدينة العربيّة الإسلاميّة، قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» [8] ويعني الحديث أنّ المسلم يجب ألاّ يُضرّ بنفسه وألاّ يلحق الضّرر بغيره. ويترتّب على ذلك المبدأ عدّة اعتبارات لها علاقة بالعمارة مثل عدم أحقيّة الجار في فتح نافذة جديدة تطلّ على بيت جاره، إذا كان الجار ينزعج من ذلك، كما يلحق بذلك كلّ التّصرّفات أو التّغييرات التي يمكن أن تلحق الضّرر بالآخر. وقد ورد عن الإمام مالك قوله في هذا المعنى « ليس له (السّاكن) أن يحدث على جاره ما يضرّه وإن كان الذي يُحدث في ملكه» [9]

> **إنّ عمارة المدن الإسلاميّة ليست بمعزل عن تصوّر المسلمين لمنهج الحياة وللقيم التي يجب أن تسود في المجتمع.**

والواضح أنّ قاعدة «لا ضرر ولا ضرار» التي تمثّل أساسا من أسس حسم الخلافات بين الجيران في المسائل المعماريّة، هي تأكيد على أهميّة بعض القيم الأساسيّة المرتبطة بالتّعايش بين السكّان مثل احترام حرمة الجار واحترام حقّه في الرّاحة والسّكينة فالمسكن سكن للإنسان، ولا يجوز لأيّ طرف باسم الجوار أن يسبّب الأذى المادّي أو المعنوي لجاره.

وقد روعيت تلك القاعدة في اختيار مكان الصّنائع في أطراف المدن أو في أماكن خاصّة حتّى لا يتأذّى عموم السكّان بضجيج أصحاب الصّنائع المختلفة.

ويؤدّي احترام هذه القاعدة إلى بناء علاقات متينة بين الأجوار لا يحسّ فيها أيّ طرف بالأذى والضّيم من قبل جاره الذي قد يكون أكثر مالا ونفوذا ولكنّه ليس أكثر حقوقا من غيره.

ونخلص في الأخير إلى أنّ عمارة المدن عموما والمدن الإسلاميّة خصوصا ليست بمعزل عن تصوّر المسلمين لمنهج الحياة وللقيم التي يجب أن تسود في المجتمع، لذلك اتخذت الشكل الذي يلائم تطلّعاتهم وتصوّراتهم وحاجيّاتهم الماديّة والروحيّة.

الهوامش

[1] سورة العنكبوت - الآية 45

[2] صحيح البخاري - حديث رقم 6019

[3] صحيح البخاري - حديث رقم 6011

[4] من خطبة الوداع

[5] مسند أحمد حديث رقم 23536

[6] سورة الحجرات - الآية 13

[7] سورة البقرة - الآية 191

[8] حديث نبوي ورد في موطأ مالك و في مسند أحمد

[9] المدوّنة الكبرى للإمام مالك - رواية سحنون عن ابن القاسم - طبعة دار الكتب العلميّة - بيروت1994 ص 408.

كاريكاتير

بين أصحاب الشهائد العليا وشفافية المسؤولين

خصائص المعرفة الصوفية
«الجزء الأول»

د. محمد ديان
«أستاذ باحث. مدينة أرفود - المغرب»
mohammederfoud@gmail.com

إنّ الصّوفية الذين جعلوا من التّصوّف طريقا ومسلكا ومعراجا روحانيّا ونورانيّا يوصلهم إلى القرب من الله والأنس به وحده فقط، يمن الله عليهم فيهبهم من لدنه أنواعا من المعارف لا تحصل و«لا تُعرف عن طريق العقل والنظر بقدر ما تفهم عن طريق الذوق والكشف»[1]. وما يلقى ذلك ولا يناله إلاّ من جاهد نفسه، وعمل على تخليتها وتحليتها وتزكيتها بكلّ أنواع الطّاعات والقربات، إذ كلّما ارتقى الصّوفي في مدارج ومراقي المقامات، فتح الله تعالى عليه كنوز العلم وأسرار المعرفة، فيعلم أكثر، ويفقه أكثر، ويصدق أكثر، وتحصل له الخشية أكثر، فتكون النّتيجة «انتقاله من النّظر إلى الذّوق، ومن البصر إلى البصيرة، ومن العلم إلى المعرفة. فلا تعارض ولا تناقض، وإنّما فهم أوسع، وفكر أشمل، ورأي أصوب، وطريق أكمل»[2]. فتصفو النّفس وترقّ وتشفّ، فتذوق وتكاشف وتشاهد وتتحقّق، فتختصّ بالإلهامات وفيوضات وأسرار وأنوار المعرفة التي تتجاذبها المكاشفة والشّوق، وتمتزج بها المشاهدة والإلهام بالتّحقق فتعطيها خصائص تجعلها متميّزة ومتفرّدة عن غيرها من المعارف التي تحصل لغير المتصوّفة. سنتطرق في هذا المقال إلى خمس من هذه الخاصّيات ونؤجّل الحديث عن خاصّيتين أخريَين في المقال القادم إن شاء الله.

أولا- اعتبار المعرفة الصّوفية لبّ العلم:

الجدير بالذّكر والتّذكير أنّ الصّوفية يرون أنّ «المعرفة لبّ العلم، ونسبة العلم إليها كنسبة الإيمان إلى الإحسان. وهي علم خاصّ، متعلّقاتها أخفى من متعلّق العلم وأدقّ»[3] وهي كذلك في أصولهم وعرفهم «بمنزلة الأمور الوجدانيّة التي لا يمكن لصاحبها أن يشكّ فيها، ولا ينتقل عنها. وكشف المعرفة أتمّ من كشف العلم»[4] .

> المعرفة لبّ العلم، ونسبة العلم إليها كنسبة الإيمان إلى الإحسان. وهي علم خاصّ، متعلّقاتها أخفى من متعلّق العلم وأدقّ.

إنّ المعرفة بهذه المقاييس والاعتبارات المعتمدة من قبل الصّوفية، فوق العلم، لأنّ «العلم هو إدراك المعلوم ولو ببعض صفاته ولوازمه، والمعرفة إحاطة بعين الشّيء على ما هو عليه»[5] . ومن المعلوم عقلا وعلما أنّ إدراك الشّيء على حقيقته برمته أفضل بكثير من الوقوف فقط عند بعض جزئياته. وهكذا يتّضح بكلّ جلاء أنّ الصّوفية قد أنزلوا المعرفة المنزلة الشّريفة وبوّؤوها الدّرجة المنيفة في كلّ أحوالهم وشؤونهم وأقوالهم، باعتبارها روح العلم وجوهره. فهل هناك من قيمة لشيء من غير روح؟

ثانيا- تجاوز هذه المعرفة العقل دون إلغائه:

إنّ العقل البشري مهما بلغ من قوّة وطاقة ليس بإمكانه الإحاطة بكلّ شيء ممّا يدل على قصوره عن معرفة أيّ شيء خصوصا إذا تعلّق الأمر بالغيبيّات، أي الأشياء التي غابت ذاتها وغاب أثرها. وللاستعاضة عن هذا النّقص، يلجأ الإنسان إلى وسائل أخرى تمدّه وتزوّده بنور المعرفة، وللصّوفية في هذه النّقطة كلمتهم بحيث يرون أنّ للإنسان قوى باطنيّة تفوق قدرة العقل وتتجاوزه متمثّلة في البصيرة والسّريرة. وفي تعريف للبصيرة يجري ابن عجيبة (ت1224هـ) مقارنة بينها وبين البصر، قائلا: «البصيرة ناظر القلب كما أنّ البصر ناظر القالب، فالبصيرة ترى المعاني اللّطيفة النّورانية، والبصر يرى المحسوسات الكثيفة الظلمانيّة الوهميّة»[6] .

إنّ البصر – بحسب ابن عجيبة – مجاله يبقى محصورا في دائرة المحسوسات، لكنّ البصيرة «قوّة للقلب منورة بنور الله، يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها»[7] ، وينفذ بها إلى عالم المعاني الدّقيقة، واللّطائف الرّقيقة. ونعمة البصيرة ليست على نفس الشّاكلة عند من أوتوها ورزقوها، «فعلم اليقين لأهل الدّليل والبرهان، وعين اليقين لأهل الكشف والبيان، وحقّ اليقين لأهل الشّهود والعيان»[8] .

والقوّة الباطنيّة الأخرى التي تزوّد الإنسان بالمعرفة هي السّريرة. وفي مقارنة بينها وبين البصيرة، يتحفنا ابن عجيبة بقوله:«والبصيرة القوّة المهيأة لإدراك المعاني، والسّريرة القوّة المستعدّة لتمكّن العلم والمعرفة»[9]

تبدو السّريرة من خلال هذه المقارنة أسمى وأرقى درجة من البصيرة، فهي تمكّن من الوصول والحصول على الحقائق مهما كانت سرّية وخفيّة. ومن رزقها فقد اختص بعطاء ربّاني خاصّ يفتح الله عليه به مغاليق

> أنّ المعرفة الصّوفية تتجاوز القياس المبني على البرهان، والاستدلال المرتكز على العقل، ولا تقبل حصر وقصر الإدراك والمعرفة فيما يكون من عمل الحواس والعقل

العلوم ويرفع عنه إشكال الفهوم. ونخلص من هذا الكلام إلى أنّ المعرفة الصّوفية تتجاوز القياس المبني على البرهان، والاستدلال المرتكز على العقل، ولا تقبل حصر وقصر الإدراك والمعرفة فيما يكون من عمل الحواس والعقل. إنّها تتجاوز ذلك إلى آفاق رحبة لا حدود لها في مجال المعرفة التي تحصل بالبصيرة والسّريرة.

ثالثا- شمولها لكل علم:

إنّ الصّوفيّة يصنّفون المعرفة التي لدى النّاس إلى «معرفة العوام، ومعرفة الخواص، ومعرفة خواص الخواص، فمعرفة العوام: معرفة العبوديّة، ومعرفة الرّبوبية، ومعرفة الطّاعة، ومعرفة المعصية، ومعرفة العدوّ والنّفس. ومعرفة الخواص: معرفة الإجلال والعظمة، ومعرفة الإحسان والمنّة، ومعرفة التّوفيق. وأمّا معرفة خاصّ الخاصّ: فمعرفة الأنس والمناجاة، ومعرفة اللّطف والتّلطّف، ثمّ معرفة القلب، ثم معرفة السّر»[10] فمعرفة خاصّ الخاصّ، هي من حظّ خاصّة الخاصّة الذين انكشفت في وجوههم حجب الأسرار بما أفاض عليهم الحنان المنان من الأنوار، ممّا يمكن كلّ واحد منهم – بحسب ابن عربي (ت 638ه)- من «الاطّلاع على جميع المذاهب كلّها والنّحل والملل والمقالات (...) فما تظهر من نحلة من منتحل، ولا ملّة بناموس خاصّ (...) وما اختلف وتماثل، إلاّ ويعلم صاحب الكشف من أين أخذت هذه المقالة أو الملّة أو النّحلة فينسبها إلى موضعها، ويقيم عثر القائل بها ولا يخطئه ولا يجعل قوله عبثا»[11]. ولا غرو فمن عنده العلم الموهوب - يضيف ابن عربي - «يعلم العلوم كلّها ويستغرقها»[12] .

وابن عربي بفعله هذا، قد جارى السّرّاج الطّوسي(ت 378هـ) فيما ذهب إليه لمّا أعلنها مدويّة مجلجلة: «إنّ الصّوفيّة لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يترسّموا برسم من الأحوال والمقامات دون رصد، وذلك لأنّهم معدن جميع العلوم، ومحلّ جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشّريفة»[13] . فهل هذا يعني أنّهم أفضل حتّى من الأنبياء والعلماء؟

في نفس السياق، فإنّ الصّوفيّة يتباهون «ويتفاخرون على النّاس أنّ لديهم علوما لدنيّة، لا يطّلع عليها إلا ّهم، ولا يصل إليها إلاّ من سار على طريقهم»[14] . فهذا أبو يزيد البسطامي (ت 261هـ) في حالة انتشاء وإعجاب ووجد يخرج علينا بهذا الشّطح: «خضت بحرا وقف الأنبياء بساحله»[15]. وهو يقصد هنا العلم اللّدني الذي – من وجهة نظره الخاصّة – تفوق به على الأنبياء وخصّ به دونهم، فضلا عن غيرهم، جاعلا بذلك الصّوفيّة ممثّلين في شخصه يمتلكون مفاتيح الحقيقة ويخوضون بحار العلوم والمعرفة بما لديهم من علم مباشر لدنّي مصدره الذّوق والإلهام والكشف وشهود الحقيقة. وهذا لا يتأتّى إلاّ لهم وحدهم.

وفي تأكيد للمسألة، قال بعضهم: «أخذتم علمكم عن ميّت، وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يموت. يقول

أحدكم حدثنا فلان عن فلان، وأين فلان ؟ قالوا: مات، وأمّا أحدنا فيقول: ربّي عن قلبي»[16] .

ويدندن محيي الدّين بن عربي حول المسألة نفسها، فينبس: «فما ألقي إلاّ ما يلقى إلي، ولا أنزل في هذه السّطور إلاّ ما ينزل به عليّ، ولست بنبيّ ولا رسول، ولكنّني وارث ولآخرتي حارث»[17] .

إنّ الصّوفية يجزمون بأنّ الله تعالى خصّهم بعلم لدني وأسرار إلهيّة ومعارف ربّانيّة، تتوارد عليهم عن طريق الكشف الذي قال فيه ابن عربي: «الكشف هو الطّريق الذي عليه أسلك، والرّكن الذي إليه أستند في علومي كلّها»[18] .

> **إن التصوف ليس مجرد فكرة ونظرة، وإنما هو إلى جانب ذلك سلوك وتجربة يخوضها الصوفي ليرتقي في مدارج السالكين لعله يصل إلى أعلى المقامات.**

رابعا- طريق الوصول إليها السّلوك الفردي:

إنّ التّصوّف ليس مجرّد فكرة ونظرة، وإنّما هو إلى جانب ذلك سلوك وتجربة يخوضها الصّوفي ليرتقي في مدارج السّالكين لعلّه يصل إلى أعلى المقامات، فيعمل جاهدا على تربية النّفس ورياضتها، لأنّه يعلم علم اليقين أنّه بقدر ارتقائه وترقّيه تصفو روحه وتزكو، فتحصل له المكاشفة والمشاهدة فيزداد علما ويقينا ومعرفة، وفي هذا الشّأن يقول ابن قيم الجوزيّة (ت 751هـ) «فمتى خلصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشريّة التي ينهى عنها العقل والدّين والمروءة، وطهّرت الأنفس من علائق الدّنيا، زكت أرض القلب، فقبلت بذر العلوم والمعارف، فإن سقيت بعد ذلك بماء الرّياض الشّرعية النّبوية المحمديّة، وهي لا تخرج عن علم، ولا تبعد عن واجب ولا تعطل سنة، أنبتت من كلّ زوج كريم: من علم وحكمة وفائدة تعرف، فاجتنى منها صاحبها ومن جالسه أنواع الطّرف والفوائد والثّمار»[19] .

انطلاقا من النّص، فإنّ قلوب المتّقين ومن ضمنهم الصّوفيّة العارفين السّنيين يفجّرها الله سبحانه بحارا من العلوم ويجريها أنهارا من المعرفة. وارتباطا بموضوع الممارسة الصّوفيّة ودورها في جني ثمار المعرفة يقول ابن عجيبة: «فعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية، وعمل بلا حال سير بلا نهاية»[20] .

إذاً لا مناص - كما يرى ابن عجيبة وغيره من الصّوفية - من خوض التّجربة الصّوفية بحسن نيّة وصدق طويّة لمن أراد أن يرتوي من معين المعرفة الذّوقيّة اللّدنية، لأنّه عبرها و«عن طريقها وحدها يتّصل العارف بمطلوبه أو بمعشوقه وهو الله تعالى، وعن طريقها تتمّ معرفته به»[21] .

خامسا- تميّزها بالجدليّة والدّهشة:

إنّ النّفس البشريّة لتتوق كثيرا وتحنّ أكثر إلى أن تبقى على اتصال دائم بعالم الملكوت الذي قدمت منه، ولهذا نجد الصّوفيّة حريصين جدّا على أن يكونوا دوما في صعود وترقّ حتّى الوصول إلى حقيقة كبرى اليقينيّات الكبرى، ألا وهي معرفة الله تعالى، تلك التي تشكّل صلب موضوع المعرفة الصّوفيّة كما نطق

> يحرص الصّوفيّ على أن يكون دوما في صعود وترقّ حتّى الوصول إلى حقيقة كبرى اليقينيّات الكبرى، ألا وهي معرفة الله تعالى، تلك التي تشكّل صلب موضوع المعرفة الصّوفيّة.

بذلك أحد أقطابها الإمام الجنيد (ت 297هـ)، حيث قال: «إنّ أوّل ما يحتاج إليه العبد من الحكمة معرفة المصنوع صانعه، والمحدث كيف كان إحداثه، يتعرّف صفة الخالق من المخلوق، وصفة القديم من المحدث، ويذلّ لدعوته، ويعترف بوجوب طاعته. فمن لم يعرف مالكه، لم يعترف بالملك لمن استوجبه»[22]. وخلال اللّحظة الرّوحية التي تحصل فيها هذه القناعة، يعلم الصّوفيّ علم اليقين أنّه أعجز من أن يحيط بحقيقة الذّات الإلهيّة عيانا وفكرا، فيكتفي عندها فقط بالإقرار بوجودها، وبمشاهدة آثارها، وبذلك ينتقل من عالم الملكوت إلى عالم الملك، أي «الرّجوع إلى شهود الأثر بالله»[23]، إذ لا سبيل لأيّ كان الإحاطة بالذّات الإلهيّة، إذ «كيف يدرك متناه في قوّته اللاّمتناهي في مطلقيته ومطلقيّة قواه ؟»[24]. ولا يسع الصّوفيّ في هذا الحال والمقام إلاّ أن يفوّض أمر معرفة حقيقة الله إلاّ إلى الله وحده، مردّدا مع أبي العباس السّبتي (ت 601هـ) في كامل الخشوع والخضوع: «كيف يحيط بك علم أنت خلقته؟ أم كيف يدركك بصر أنت شققته؟ أم كيف يدنو منك فكر أنت وفقته»[25]. ومصداق هذا الكلام الذي يفيض حقيقة من القرآن الكريم، قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[26].

وللحديث بقية

الهوامش

(1) ألفاظ الصوفية، للدكتور حسن الشرقاوي، ص: 7، مؤسسة مختار، القاهرة، الطبعة الأولى: 1987م.

(2) ألفاظ الصوفية، ص: 13.

(3) مدارج السالكين، لابن القيم، دراسة وتحقيق: ناصر بن سلمان السعوي وصالح بن عبد العزيز التويجري وعلي بن عبد الرحمن الفرعاوي وخالد بن عبد العزيز الغنيم ومحمد بن عبد الله الخضيري، ص: 2652، دار الصميعي للنشر، الرياض السعودية، الطبعة الأولى: 1432هـ/ 2011م.

(4) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(5) المصدر نفسه، ص: 3370 بتصرف.

(6) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، لابن عجيبة، 68/1، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، س ط: 1331هـ.

(7) معجم اصطلاحات الصوفية، لعبد الرزاق الكاشاني، تحقيق: د عبد العال شاهين، ص: 64، دار المنار، القاهرة، الطبعة الأولى: 1413ه/ 1992م.

(8) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، 52/1.

(9) معجم اصطلاحات الصوفية، 20/1.

(10) أبو يزيد البسطامي: المجموعة الصوفية الكاملة. ويليه كتاب تأويل الشطح، ص: 60، تحقيق وتقديم قاسم محمد عباس، دار ندى للثقافة والنشر، س ط: 2004م.

(11) الفتوحات المكية، لابن عربي، 398/3، دار صادر بيروت.

(12) تفسير ابن عربي، جمع وتأليف د: محمود محمود غريب، 23/3، مطبعة نضر، س ط: 1410هـ/ 1989م.

(13) اللمع، للطوسي، تحقيق: عبد الحليم محمود، وطه عبد الباقي سرور، ص: 40 – 41، طبعة مشتركة بين مصر وبغداد، س ط: 1960م.

(14) الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، لعبد الرحمن عبد الخالق،

ص: 335، مكتبة سلسبيل، القاهرة مصر، الطبعة الأولى: 1394هـ/ 1974م.

(15) أبو يزيد البسطامي: المجموعة الصوفية الكاملة، ص: 49.

(16) الصوفي والآخر: دراسة نقدية في الفكر الصوفي المقارن، لعبد السلام الغرميني، ص: 109، شركة المدارس للنشر والتوزيع، الدار البيضاء المغرب، الطبعة الأولى: 1421هـ/ 2000م.

(17) مقدمة كتاب: فصوص الحكم، لابن عربي، تحقيق أبي العلاء عفيفي، ص:48، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية: 1980م.

(18) التجربة الصوفية الكاملة، لإبراهيم مجدي محمد، ص:19، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة مصر، الطبعة الأولى: 2003م.

(19) مدارج السالكين، ص: 2655 - 2656.

(20) الفهرسة، لابن عجيبة، ص: 40، تحقيق عبد الحميد صالح حمدي، دار الغد العربي، القاهرة مصر، الطبعة الأولى: 1990م.

(21) موقف ابن رشد من إشكالية المعرفة الصوفية، لأحمد بلحاج آية وارهام، ص: 33، دار وليلي للطباعة والنشر، مراكش المغرب، الطبعة الأولى: 2001م.

(22) الرسالة القشيرية، ص: 42.

(23) شرح تصلية ابن مشيش، لابن عجيبة، مخطوط ضمن مجموع، ص: 9، قسم الوثائق بالرباط برقم: 1071 د.

(24) موقف ابن رشد من إشكالية المعرفة الصوفية، ص: 37.

(25) النبوغ المغربي في الأدب العربي، لعبد الله كنون، 329/2، الطبعة الثانية: 1380 هـ.

(26) الزمر: 64.

الإصلاح الديني: إعتناق العقلانية والتحرر من سلطة التهافت.

محمد بن الظاهر
«باحث مغربي»
medbndahr@gmail.com

فلسفة الدّين نوع من التّفكير يعتمد العقل في البحث وتحليل المقدّسات والمعتقدات والظّواهر الدّينيّة وتفسيرها بعيداً عن التّنظير اللاّهوتي التّبشيري، ولا تتوخّى الرّكون في حدود معيّنة، بل تطلق العنان لتفكيرها دون وضع سقف له، ففيلسوف الدّين باحث يتحرّى الحقيقة بموضوعيّة وحياد تامّين بهدف تحرير الدّين من سجن الماضي وتجنّب الغرق في التّفسيرات التّراثيّة وتأويلات تبرّر أجندة سياسيّة.

لقد درس «فيبر» و«دوركايم» سوسيولوجيّة الدّين بشكل مستفيض، وأكّدا أنّ للدّين دورا وظيفيّا مهمّا في تعزيز التّماسك والتّضامن الإجتماعيّين، وله دور في إحداث تغيير إجتماعي. لن تتحقّق وعود «ماركس» بإختفاء الدّين بفعل تطوّر وسائل الإنتاج، فما زالت المعتقدات الدّينية تؤثّر تأثيراً بالغاً ،حيث خرجت من النّمط التقليدي (في الغرب)، إذ أنّ عدداً من الغربيّين يعتبرون أنفسهم متديّنين وملتزمين لكن يمارسون شعائرهم خارج إطار المؤسّسات الدّينية التّقليديّة. وتختلف الحدّة وتتعمّق الهوّة بين العالمين، ففي الدّول النّامية أو الدّول التي تتبنّى «ديناً»، رغم أنّ الدّولة كيان غير مادّي لا ديني، مازال الدّين

يكتسي طابع التّقليد ومازال «الطوطام» متفشّياً، ولقد فهمت الأجهزة القمعيّة في هذه الدّول هذا الشّيء واستعملته في قضاء حوائجها وطمس الأعين عن الظّلم والعنف والطّغيان الذي يظلّ على الدّوام يستغلّ صورالله ويمارس العدوان ويسفك الدّماء بإسمه.

> **لا يمكننا تحديث التّفكير الدّيني وإصلاحه والتّحرر من شبح الماضي إلاّ بأعلاء سلطة العقل والتّخلّص من الخلط والتّلبيس بين مفهوم اللّه وتصوّرنا له وبين المقدّس وتصوّر البشر له**

لا يمكننا تحديث التّفكير الدّيني وإصلاحه والتّحرر من شبح الماضي إلاّ بإعلاء سلطة العقل والتّخلّص من الخلط والتّلبيس بين مفهوم الله وتصوّرنا له وبين المقدّس وتصوّر البشر له. فالسّبيل للنّهوض لا يكمن إلاّ بإيجاد منهج عقليّ ومنطقيّ رصين، دون الغرق في تأويلات النّصوص الدّينية التي تبنى على البعد النفسي للمفسّر وبعده المعرفي والحقبة التّاريخيّة التي يعيش فيها، فهذه الأبعاد والمتغيّرات تتداخل لتعطي تأويلاً نأخذه نحن على أنّه مسلّمة. الله لم يعطنا عقولاً لتخالف شرائعه، وعلينا أن نفهم أنّ النزاعات الدّينية داخل الدّين الواحد أو بين الأديان ليست في تنوّع الشّرائع بحدّ ذاتها بل بتناقض الأطماع الإقتصاديّة والسّياسية ولا يمكن إصلاح العلاقات بين الأديان وبين الشّيعة والسّنة بوجه الخصوص إلاّ بتحكيم العقل وتقليص سلطة رجال الدّين وجعل التّدين أمراً شخصيّاً، بمعنى العلمنة.

أوهمتنا المفاهيم الخاطئة أنّ هناك قطيعة بين الفلسفة كتفكير نقدي منطقي والشّريعة، لكن لا يمكن العودة إلى الدّين الصّحيح إلاّ بتكريم الإجتهاد وتحفيزه، واستقلال المؤسّسات الدّينية عن السّلطة السّياسية وصون حقّ الإختلاف في المذاهب والإجتهادات وفي النّصوص الدّينيّة الإسلاميّة. هنالك تناغم منشود بين الدّين والدّنيا، فلا يمكننا أن نستعين بالعقل لهدم العقل.

إنّنا نحتاج إلى نهضة وثورة كبيرة تهزّ أركان السّلوكات اللاّعقليّة، كما نحتاج إلى عدم قمع الإصلاح ومنعه فهذا لن يأتي إلاّ بتفاقم الويلات، والقمع آخذ بالزوال لا محالة، فهذه حتميّة تاريخيّة لا مناص منها والشّعوب العربيّة لن تتراجع عن مطالبتها بالإصلاح .

أيمن الديماسي
«إطار سامي بسلك رقابي- مكون وباحث في مجال الصفقات العمومية»
aymen.dimassi@yahoo.fr

الصفقات العمومية...
بين مطرقة القانون وسندان المشتري العمومي

(المقال 4)
منظومة الصفقات العمومية
(الجزء الأول)

من أهداف الحكومات المتعاقبة بعد الثورة تحقيق شعار «الحوكمة الرشيدة» على أرض الواقع وخلق تقاليد جديدة تضمن الاستغلال الأمثل لموارد الدولة وإمكانياتها وذلك عبر ترشيد نفقات الميزانيّة ومقاومة الفساد بالوزارات والمؤسّسات والمنشآت العموميّة وإرساء منظومة حوكمة الصفقات العموميّة على المستوى المركزي والجهوي والمحلّي ونواصل خلال هذه السّلسة من المقالات التي كتبها السّيد أيمن الدّيماسي أحد الخبراء في المجال تحت عنوان : «الصفقات العموميّة... بين مطرقة القانون وسندان المشتري العمومي » تقديم تحليل قانوني وعلمي وواقعي للاطار القانوني للصّفقات العمومية بعد الثّورة.

(1) أصناف الصفقات:

إنّ المبدأ في الصّفقات العموميّة هو أن يتمّ الإبرام من قبل المشتري العمومي لتسديد حاجاته السّنوية، إلاّ أنّه يمكن بصفة استثنائيّة تجميع شراءات مشتر عمومي أو عدّة مشترين عموميّين ضمن صفقة إطاريّة أو عامّة شريطة أن يكون لهذا التّجميع فوائد فنّية أو مالية.

1.1 الصّفقة الإطاريّة:

تهدف إلى تسديد حاجيّات من نفس الطّبيعة أو ذات طبيعة متكاملة لها صبغة قارّة ومتوقّعة. وتضبط الصّفقة الإطارية المقدارين الأدنى والأقصى لقيمة أو كمّية الطّلبات الممكن اقتناؤها أثناء المدّة المحدّدة بالصّفقة على أن تحدّد الحاجيّات المراد تسديدها والكّميات المراد اقتناؤها فعليّا لكلّ طلب أثناء الإنجاز بأذون تزوّد.

تبيّن هذه الصّفقة مدّة صلوحيّتها ويتعيّن أن تنصّ على إمكانيّة تجديدها ضمنيّا على أن لا تتجاوز مدّتها الجمليّة ثلاث سنوات وبصفة استثنائيّة خمس سنوات بالنّسبة للصّفقات التي تستوجب رصد استثمارات خصوصيّة.

> **"تعتبر الصّفقة العامّة الطّريقة المثلى لتسديد حاجات مشتركة أو متكاملة أو متماثلة لفائدة مجموعة من المشترين العموميّين لما لذلك من فوائد عديدة على مستوى الجودة والأسعار"**

ويجدر التّأكيد على ضرورة أن توضّح كرّاسات الشّروط في مرحلة الدّعوة إلى المنافسة أنّ الصّفقة المزمع إبرامها هي صفقة سنويّة وأنّ التّجديد ليس آليّا بل هو إمكانيّة برضاء الأطراف المتعاقدة.

2.1 الصّفقة العامّة:

تعتبر الصّفقة العامّة الطّريقة المثلى لتسديد حاجات مشتركة أو متكاملة أو متماثلة لفائدة مجموعة من المشترين العموميّين لما لذلك من فوائد عديدة على مستوى الجودة والأسعار أو لاعتبارات أخرى تهمّ المصلحة العامّة للمشترين العموميّين المعنيين.

ولا يحول هذا التّجميع دون توزيع الطّلب العمومي إلى أقساط تضمن توسيع المنافسة. ويتعيّن توزيع الطّلبات باعتبار قدرات وتجربة المؤسّسات الصّغرى والمتوسّطة خاصّة.على سبيل المثال يمكن إبرام صفقة عموميّة لفائدة عدّة وزارات مع توزيع الطّلبات إلى عدّة أقساط. ويتضمّن كلّ قسط الخاصّيات الفنّية المتعلّقة بكلّ وزارة.

ويتمّ إبرام الصّفقات العامّة من قبل المشترين العموميّين على أساس التّواجد الجغرافي أو وحدة طبيعة النّشاط أو الانتماء القطاعي وفي كلّ الحالات التي توفّر فوائد فنّية أو ماليّة أو تقليص آجال و إجراءات إبرام الصّفقة. يعيّن المشترون العموميّون مفوّضا عنهم يتولّى إبرام الصّفقة العامّة وتبليغها ويتولّى كلّ مشتر عمومي إبرام الصّفقة الخاصّة به.

ويتمّ اللّجوء إلى صيغة الصّفقة العامّة إمّا بناء على مقرّر صادر في الغرض أو اتفاقيّة تبرم بين المشترين العموميّين المعنيين بالصّفقة تبيّن:

- صيغة الصّفقة العامّة.
- تحديد الحاجيّات والخاصّيات الفنيّة والكمّيات الخاصّة بكلّ مشترٍ عموميّ.

"مركزيّة الشّراء هي الهيكل العمومي الذي يتولّى إبرام وتنفيذ صفقات عموميّة لاقتناء مواد أو خدمات لفائدة مشترين عموميّين."

- تعيين مفوّض عن جميع المشترين العموميّن المعنيّين بالصّفقة العامّة ليتولّى القيام بمختلف إجراءات الإبرام ويمكن تشريك أعضاء عن الأطراف الأخرى المعنيّة بالصّفقة لمساعدته ومساندته خلال كافّة المراحل من ضبط الحاجات وتجميعها وإعداد وثائق الدّعوة إلى المنافسة وفتح الظّروف وفرز العروض واختيار صاحب الصّفقة والختم النّهائي للصّفقة.

كما أنّ الصّفقة الخاصّة المبرمة من قبل كلّ مشترٍ عموميّ لا تعرض على الرّأي المسبق للجان الصّفقات باعتبار مطابقتها لشروط الصّفقة العامّة التي تعرض وجوبا على أنظار لجنة الصّفقات ذات النّظر فيما تبقى صفقات الدّولة والمؤسّسات العموميّة والجماعات المحلّية خاضعة للتّأشيرة المسبقة لمراقب المصاريف العموميّة. وبالنّسبة للمنشآت العموميّة، تعرض الصّفقات الخاصّة على مجالس إدارتها أو مجالس المراقبة للمصادقة عليها.

ويلاحظ أنّ الأمر عدد 1039 لسنة 2014 المنظّم للصّفقات العموميّة تعرّض إلى مفهوم الصّفقة العامّة في إطار القسم الثّالث من الباب الأوّل المتعلّق بتجميع الطّلبات ومركزيّات الشّراء. ويعتبر مركزيّة الشّراء الهيكل العمومي الذي يتولّى إبرام وتنفيذ صفقات عموميّة لاقتناء مواد أو خدمات لفائدة مشترين عموميّين.

3.1 صفقة التّصور والتّنفيذ:

هي صفقة واحدة تتعلّق في الآن نفسه بتصوّر المشروع وتنفيذ الأشغال أو بتصوّر منشأ كامل وتوفير معدّاته وإنجازه.

لا يمكن للمشتري العمومي إبرام صفقة تصوّر وتنفيذ إلاّ إذا كان ذلك مبرّرا بأسباب فنّية تتطلّب تقنيّات خاصّة وعمليّات إنجاز شديدة التّرابط وتستوجب تشريك مصمّم ومنفّذ المشروع، ويجب أن تتّصل هذه المبرّرات بالصّبغة الوظيفيّة للمنشأ وبتقنيّات إنجازه.

يتولّى صاحب المنشأ مراقبة احترام صاحب الصّفقة لالتزاماته ومتابعة حسن تنفيذ الطّلبات موضوع الصّفقة. وتحدّد صفقة التّصور والتّنفيذ إجراءات هذه المراقبة ودوريّتها.

(2) طرق إبرام الصّفقات العموميّة

تبرم الصّفقات العموميّة بعد الدّعوة إلى المنافسة عن طريق طلبات العروض إلاّ أنّه يمكن بصفة استثنائيّة إبرام صفقات عموميّة بالتّفاوض المباشر. يستمد مبدأ اعتماد طلب العروض في إبرام الصّفقات العموميّة من الفصل 100 من مجلة المحاسبة العموميّة الذي أكّد على إبرام الصّفقات العموميّة بعد الدّعوة إلى

المنافسة. كما أنّ الفصل 39 من القانون عدد 9 لسنة 1989 المؤرّخ في 1 فيفري 1989 المتعلّق بالمساهمات والمنشآت العموميّة ينصّ على أنّ الصّفقات العموميّة تبرم بعد الدّعوة إلى المنافسة التي يتمّ تنظيمها وفقا للقواعد والإجراءات المبينة بأمر.

1.2 طلب العروض المفتوح:

يكون طلب العروض مفتوحا عندما يسمح لكلّ المترشّحين بتقديم عروضهم.

2.2 طلب العروض المضيّق:

يكون طلب العروض مضيّقا عندما يكون مسبوقا بانتقاء ويتمّ على مرحلتين:

- تتضمّن المرحلة الأولى الإعلان عن الرّغبة في المشاركة طبقا لكرّاس العناصر المرجعيّة للانتقاء الذي يضبط بدقّة شروط المشاركة والمنهجيّة والمعايير التي يتمّ على أساسها انتقاء المترشّحين.

- المرحلة الثّانية تتمثّل في دعوة العارضين الذين تمّ انتقاؤهم إلى تقديم عروضهم.

ويعرض تقرير الانتقاء على الرّأي المسبق للجنة مراقبة الصّفقات العموميّة ذات النّظر.

3.2 طلب العروض مع المناظرة:

يمكن اللّجوء إلى طلب العروض مع المناظرة بناء على برنامج يعدّه المشتري العمومي عند وجود أسباب فنّية أو جماليّة أو ماليّة تبرّر إجراء أبحاث خاصّة أو تقتضي اختصاصا معيّنا من قبل المترشّحين.

يمكن أن يتمّ تنظيم طلب عروض مع المناظرة في إطار تشجيع صناعة المحتوى بالنّسبة للطّلبات المرتبطة ببرامج ذات طابع تفاعلي أو ثقافي أو في مجال التّكوين في الملتيميديا.

يضبط برنامج المناظرة محتوى الحاجيّات التي يجب تلبيتها وكذلك المنهجيّة ومعايير تقييم العروض ويحدّد الكلفة القصوى المبرمجة لإنجاز المشروع موضوع المناظرة.

يمكن أن تتعلّق المناظرة بـإحدى الطّلبات التّالية:

* دراسة مشروع،

* تنفيذ مشروع تمّت دراسته مسبقا،

* دراسة مشروع وتنفيذه في نفس الوقت.

ويمكن أن يكون طلب العروض مع المناظرة مفتوحا أو مسبوقا بانتقاء.

"يمكن اللّجوء إلى طلب العروض مع المناظرة بناء على برنامج يعدّه المشتري العمومي عند وجود أسباب فنّية أو جماليّة أو ماليّة تبرّر إجراء أبحاث خاصّة أو تقتضي اختصاصا معيّنا من قبل المترشّحين"

4.2 الصفقات بالتفاوض المباشر:

طبقا للفصل 49 من الأمر المنظّم للصّفقات العموميّة تعتبر «صفقات بالتّفاوض المباشر» الصّفقات التي يبرمها المشتري العمومي في الحالات التّالية :

أ) صفقات الأشغال والتّزود بمواد وخدمات والدّراسات التي لا يمكن، لأسباب فنّية، أن يوكل إنجازها إلاّ إلى مقاول أو مزوّد أو مسدي خدمات معيّن والمواد التي يكون تصنيعها من قبل مالكي براءات اختراع مسجّلة طبقا للقانون التونسي بصفة حصرية سواء من قبلهم شخصيا أو من قبل ممثليهم، أو الخدمات التي لا يمكن إسداؤها إلاّ من قبل مقاول أو مزود وحيد.

ب) الطّلبات التي لا يمكن إنجازها بواسطة الدّعوة إلى المنافسة عن طريق طلب العروض نظرا لمتطلّبات الأمن العام والدّفاع الوطني أو متّى اقتضت المصلحة العليا للبلاد أو في حالات التّأكد القصوى النّاتجة عن ظروف لا يمكن التّنبؤ بها.

3. الصّفقات التي تمّ في خصوصها إجراء دعوة إلى المنافسة لمرّتين متتاليتين على الأقل ولم ترد في شأنها عروض أو لم ترد في شأنها سوى عروض غير مقبولة شريطة أن لا يكون ذلك نتيجة إخلال في كراسات الشّروط وأن يؤدّي هذا الإجراء إلى عقد صفقة بشروط أفضل.

4. صفقات التّزود بمواد أو خدمات مع المؤسّسات التي تمّ بعثها بصيغة الإفراق من قبل المؤسّسات أو المنشآت العموميّة وذلك لمدّة أربع سنوات من تاريخ بعثها وفي حدود المبالغ القصوى المنصوص عليها بالتّراتيب الجاري بها العمل في هذا المجال. وتندرج الصّفقات المبرمة مع هذه المؤسّسات في إطار النّسبة المخصّصة سنويا للمؤسّسات الصّغرى وفقا لأحكام الفصل 20 من الأمر المنظّم للصّفقات.

5. الصّفقات التي تبرم مع المؤسّسات والمنشآت ذات الأغلبيّة العموميّة التي يتمّ بعثها في إطار برامج التّنمية الجهويّة أو في إطار إجراءات ذات صبغة اجتماعيّة.

6. الصّفقات التي تعتبر تكملة لصفقة أصليّة وتتعلّق بأشغال أو مواد أو خدمات لم يتم توقّعها عند إبرام الصّفقة الأصليّة وغير مبرمجة ضمن البرنامج الوظيفي أو التّقديرات الأوّلية ويحقّق إسنادها عن طريق التّفاوض المباشر فوائد ثابتة من حيث كلفة الإنجاز أو آجال وظروف التّنفيذ.

لقد حدّد الفصل 49 المذكور أعلاه حالات محدّدة للّجوء إلى التّفاوض المباشر وفي هذه الحالة يجب على المشتري العمومي التّقيد بإجراءات مكتوبة والتّثبت خاصّة من الصّبغة المقبولة للأثمان المقترحة.

وعليه يتعيّن العمل على التّفاوض الفعلي مع المزوّد حول عرضه المالي والفنّي وذلك بالعمل على تخفيض العرض المالي والحصول على عرض فنّي يتطابق مع الخاصّيات الفنّية المطلوبة.

في الجزء الثاني : «مراحل إبرام الصفقات العمومية وختمها»

الكادحة

سالم المساهلي
«شاعر وأديب»
salemsehli@yahoo.fr

تشقى الجسوم لحفظ ماء حيائها
تشتدّ فوق شجونها وعنائها
لا تنحني للعجز يثقل خطوها
وتهزّ رأسا مثقلا بعيائها
يا أيها النّوام في أركانهم
قوموا حياء ، وانحنوا لبهائها
يا أيها الشاكون بؤس زمانهم
هلا خجلتم من جلالِ سمائها
هبّوا إلى الدنيا سُعاةً إنما
تأتي العزائم .. قدرَ رفع لوائها
.....
أمّاه مشتاق أقبّل جبهةً
وأضمّ أقداما تنزّ بمائها
وأحسّ وجدانا يضجّ كرامةً
وأهزّ أثقالا دهتك بدائها
لكنني أدري بأنك صورة
أسطورة .. تَغنَى الرؤى بضيائها

الثورة الموسوية
زمن الطغيان الفرعوني

محمد أمين هبيري
«طالب حقوق ومدون»
hbiriamine96@gmail.com

يبيّن لنا القرآن الكريم في عديد المواضع عنجهيّة «فرعون» وتعنّته وإعراضه عن المنهج الصّحيح في ممارسته للسّلطة؛ فهو الذي طغى وتجبّر، وهو الذي آذى الضّعفاء واستحيى النّساء، وهو من حرم «بني إسرائيل» من الحقوق والحرّيات السّياسية والمدنيّة حتى أنّه سنّ قانونا جائرا يقضي بقتل الذكور من الولدان، وهو من وصلت عنجهيّته إلى قوله « أنا ربكم الأعلى» فاتّخذ من نفسه إلها سياسيّا يعبد في الأرض ويحارب إله السّماء. ففرعون هو أعلى الهرم السّياسي ويحمل صفة الطّغيان وهو ما يطلق عليه ظاهرة الحكم الإله. يقول الله تعالى : «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ» (1)

كلّ ديكتاتور أو حاكم طاغ لابدّ له من أعوان، يخدمونه ويشرّعون فساده السّياسي حتّى تكون أعماله - وإن كانت مطنبة في الفساد- مقبولة ومباركة، فيحلّون ما أحلّه الحاكم ويحرّمون ما أحلّته الفطرة السّويّة فتختلط بذلك المعايير، وتذوب القيم العليا في دنس الطّغيان العقائدي. تلك هي وظيفة رجال الدّين في زمن الطّغيان؛ وهي وظيفة «هامان»

زمن طغيان «فرعون». «فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ»[2] وبذلك فإنّ السّلطة السّياسية لا يمكنها أن تنشر أفكارها ومعتقداتها إلا بالاستعانة بالسّلطة الدّينية.

عندما تتوحّد السّلطة السّياسية مع السّلطة الدّينية، تُخلق عدّة ظواهر في المجتمع تعزّز الطّغيان الفرعوني، أهمّها الظّاهرة القارونيّة بما هي ظاهرة الطّغيان الاقتصادي. تساهم هذه الظاهرة في تدعيم الطغيان السياسي ماليّا فتساعد على حماية السّلطة وفي المقابل تعمل على امتصاص ثروات الشّعب وقدراته وتحقّق أرباحا خيالية تؤدّي بالضّرورة إلى تحقيق ثروة طائلة.

> **أسند القرآن الكريم من خلال «فرعون» و«هامان» و«قارون» أوصافا سياسيّة لممارسي الطغيان في جميع العصور منذ زمن موسى إلى نهاية الزّمن والتّاريخ**

أمّا عامّة الشّعب أو «المستضعفون في الأرض» بعبارة القرآن فهم يأتمرون بأمر السّلطة السّياسيّة تحت طائلة القتل، كما يأتمرون بأمر السّلطة الدينية تحت طائلة التّكفير والمروق. ويأتمرون بأمر الظاهرة القارونيّة تحت طائلة قطع الرزق والبطالة. وبذلك يحرمون من حقوقهم وحرّياتهم المدنيّة والسّياسية والدّينيّة المعروفة في عصرنا الحالي. لهذا اشتمل التّعبير القرآني كلّ الأوصاف المناسبة لحالة الشّعب زمن البطش الدّيكتاتوري.

لو تدبّرنا المصطلحات القرآنية حين تحدّثت عن «فرعون» و«هامان» و«قارون» لوجدنا أنّها قد أطلقت أوصافا لا أسماء. فاسم «فرعون» الحقيقي حسب المؤرّخين هو «رمسيس الثاني» واسم «هامان» هو «تحتمس» أمّا اسم «قارون» فهو «أمنحوتب». فالقرآن الكريم أسند من خلال «فرعون» و«هامان» و«قارون» أوصافا سياسيّة لممارسي الطّغيان في جميع العصور منذ زمن موسى إلى نهاية الزّمن والتّاريخ..

أمّا موسى، فهو يمثّل ذلك الشّاب الطّموح الثّوري الرّاغب في تغيير الوضع السّياسي والاقتصادي والاجتماعي بما يمكّن عامّة شّعبه من حقوقهم الفكرية والمدنيّة والسّياسية ويحقق العدالة الاجتماعيّة بين فئات المجتمع وطبقاته المختلفة . فالثّوري لابدّ له من أن يكون متفاعلا إيجابيّا مع محيطه، فيتحدّث لغتهم ويشاركهم أفكارهم. ولعلّ قوّة الثّوري تكمن في كلّ هذه الخصائص التي تجعله فردا مخلصا لشعبه، محبّا لوطنه، شاعرا بالمسؤوليّة الملقاة على عاتقه للتّغيير. ولينجح الثوري في مهامه يجب أن يحيط به أصدقاء يؤمنون به وبفكرته حتّى يتمكّنون جميعا من تحقيق الهدف المحدّد وهو مثال أخ موسى، نبي الله هارون عليه السّلام.

لعلّ من بين الخصائص التي تجب أن تتوفّر في الثّوري أيضا، اللّين والرّفق في الخطاب حتّى يتمكّن من إقناع الدّيكتاتور بطريقة سلميّة «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ»[3]. كما أنّ ثقافته الواسعة تمكّنه من المحاججة الفكريّة وهي من بين نقاط القوة التي تمكّن الثّوري من الإطاحة بالسّلطة السّياسية بالطريقة السلمية المنشودة في كلّ حركة إصلاحية. أمّا في صورة تعنّت الطّاغية فإنّ نهايته تكون مأساويّة كنهاية فرعون المعلومة للجميع.

> الذي يريد أن يحيا حياة كريمة لابدّ أن يعمل على تغيير نفسه حتّى يغيّر محيطه. وهذه سنّة من سنن الله وقانون طبيعي من القوانين التي تخضع إليها الأمم

يقال أنّ « لكلّ فرعون، موسى» ولكلّ طاغية، ثوريّ. فقد ثار موسى على فرعون زمن طغيانه وجبروته، وعلى آثاره اقتدى جميع الثّوار في كلّ أرجاء العالم وفي كلّ الأزمنة. فمنذ موسى عليه السّلام مرورا بثورة الرّسول الأكرم على الطّغيان العقائدي القريشي وصولا لثورات التّحرّر من الأنظمة المستبدّة. ويحظى المبدأ الكوني في الطغيان بصفة عامّة والطّغيان السياسي بصفة خاصة بنفس السّردية التّاريخية؛ إشباع النّفس بهوى السّلطة يعقبها بطش وتؤطّرها القوّة حتّى يخلق الطّغيان السّلطوي، تنشئ هذه العوامل ظروفا سياسيّة وأوضاعا اقتصاديّة متأزّمة حتّى ينفجر الثّائر مطالبا بالعيش الكريم.

إنّ الأمّة الإسلاميّة، بعد تشرذمها وتفتّتها إلى محميّات لا وطنيّة، تمّ الاستيلاء عليها من طرف طغاة اعتبروا أنّ الدّولة ملكهم الخاصّ وأنّهم مخلّدون في الأرض، فعاثوا فيها فسادا واستولوا على أموال الشعوب ونهبوا ثرواتها وسجنوا المعارضين وأعدموا المطالبين وعذّبوا المحتجّين. كل ذلك جعل الشّعب يخرج عن صمته ويطالب بالتّحرر من سلطويّة الدّيكتاتوريين. ذلك أنه لا بد من اندلاع الثّورة في شعب ظلم طيلة سنوات وصفت بالعجاف.

ولعلّ الثورات التي قامت في البلدان العربية منذ سنة 2011 والتي امتدت إلى اليوم هي من بين أهم النتائج التي خلّفها الاستبداد. بدأها الشّعب التّونسي ثم انتقلت إلى مصر، فليبيا، ثم اليمن وسوريا. فلا يخفى على أحد ديكتاتورية بن علي أو حكم القذافي الاستبدادي أو إجرام نظام الأسد السّوري وطغيان صالح اليمني وفساده. وممّا لا شكّ فيه فإنّ نهاية كلّ طاغوت تكون مذلّة كنهاية «رمسيس الثاني» على يد «موسى» النبي وهي نفس نهاية فراعنة القرن الواحد والعشرين على أيدي شعوبهم المقهورة.

إنّ معنى البيت الشعري الذي ألّفه الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي « إذا الشّعب يوما أراد الحياة .. فلا بدّ أن يستجيب القدر» هو مقصد الآية الكريمة « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ» [4] فالذي يريد أن يحيا حياة كريمة لابدّ أن يعمل على تغيير نفسه حتّى يغيّر محيطه. وهذه سنّة من سنن الله وقانون طبيعي من القوانين التي تخضع إليها الأمم. ولعلّ القدر سينصف الأمّة التي تتمسّك بأصلها وتنفتح على عالمها وعصرها حتّى تتمكّن من التّحديث والتّطوير الخالق للثّروة الاقتصاديّة والنّهضة الفكريّة.

الهوامش

(1) سورة القصص - الآية 4

(2) سورة القصص - الآية 38

(3) سورة طه - الآية 44

(4) سورة الرعد - الآية 11

مدينة عسقلان

مدينة التاريخ والذاكرة

المجدل - عسقلان من أكبر وأقدم مدن فلسطين التاريخية، أسسها الكنعانيون المدينة في الألف الثالث قبل الميلاد، تقع إلى الشمال الشرقي من غزة، وتبعد عنها 25 كم قريبة من الشاطئ على الطريق بين غزة ويافا. يشكل اليهود اليوم السواد الأعظم من سكان المدينة، بعد تهجير أهلها العرب في حرب 1948 الذين انتقل أغلبهم منهم إلى قطاع غزة. أقدمت بعدها المنظمات اليهودية المسلحة بعد احتلالها للمدينة في 4 نوفمبر 1948 على هدمها، وأقام الكيان الصهيوني على أراضيها مدينة «اشكلون».

تعيش «أم الفحم» اليوم تحت نير الاستيطان الصّهيوني، لكنّها ستتحرّر منه يوما ما ....

ضريح الإمام الحسين

منظر عام للمدينة

عسقلان يوم احتلالها في 4 نوفمبر 1949 .

مسجد المدينة (محول الى متحف ومقهى)

مقبرة في عسقلان تعود لـ 3 الاف عام

ترجمة القرآن الكريم : تعبير عن حرف أم تعبير عن معنى ؟

امحمد رحماني
«باحث وإمام بوجدة بالمغرب»
rahmani-mod@hotmail.com

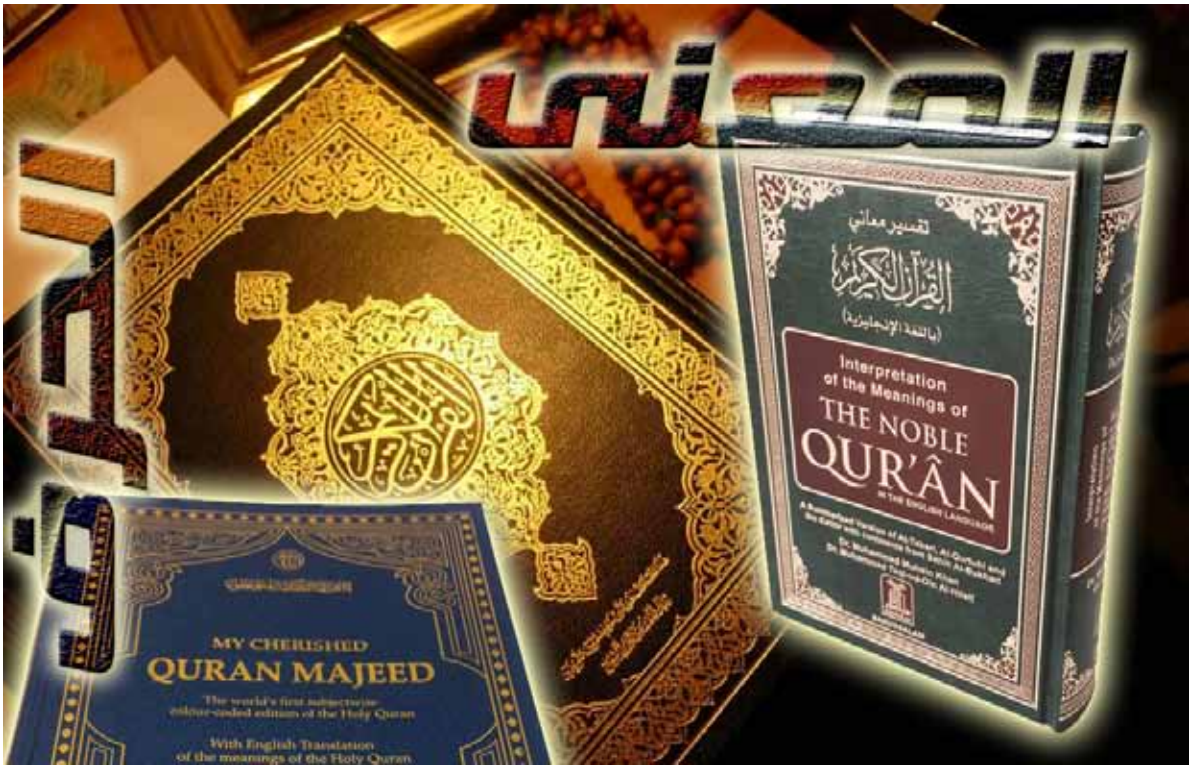

أول ترجمة عرفها القرآن الكريم هي التّرجمة إلى الفارسيّة، ومع ما كان لهذه التّرجمة من فوائد عظيمة جدّا إذ قرّبت هذا الكتاب العظيم إلى فئة كبيرة من أناس كان يحجزهم عن القرآن حاجز اللّغة والفهم. أمَا وقد وقعت ترجمته فقد أُزيل ذلك الحاجز بحيث أصبح العديد من غير النّاطقين بالعربية قادرين على قراءة وفهم ما جاء في القرآن الكريم، إلاّ أنّ لترجمة القرآن جوانب أخرى هي أحرى بالدّراسة والتّحليل لأنّها ستُسقط عاجلا أم آجلا الكثير من هؤلاء الذين قرّبتهم إلى القرآن الكريم بعد أن كانوا ممنوعين عنه، ستسقطهم في كثير من المزالق الفكريّة والمنهجيّة والعلميّة وذلك راجع لطبيعة التّرجمة أهي ترجمة «حرف» أم ترجمة «معنى»، وهذا يدفعنا إلى التعرّض في هذا المقال لمسألة حروف القرآن ومعانيه.

فالقرءان الكريم حرفا ومعنى هو من عند الله عزّ وجل، فحروفه ولو نطقها بشر فهي إلهية ومعانيه ولو أدركها النّاس فهي إلهية أيضا، وما ذاك الإدراك إلاّ توفيق من الله «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ»[1] بمعنى أنّ القرآن من عند الله سبحانه بحروفه ومعانيه، وهنا تطرح إشكاليّة التّرجمة، إذ نجد تارة التّرجمة ترجمة لحرف بدون معنى وتارة أخرى ترجمة لا مراعاة فيها للحرف العربي.

والقرآن الكريم أمران :

حرف عربي : فقد تميّز القرآن الكريم ببراعة الأسلوب وفصاحة البيان وبلاغة التّعبير، وفي كثير من آياته ترتبط المعاني الإلهيّة بالإعجاز اللّغوي والبلاغي، فلابدّ من الالتفات إلى الأسلوب اللّغوي المستخدم للوصول إلى المعنى الإلهي الباهر المراد الوقوف عليه، فقد يكون تجاهل اللّغة سببا من أسباب فَقْدِ وإغفال المعنى المراد إيصاله لعموم المخاطبين، وقد كتب الكثير من أهل العلم في علاقة المعاني باللّغة العربيّة كالزّجاج في «معاني القرآن وإعرابه». كما كتب فيه أيضا المستشرقون كالألماني «كريستوف لوكسنبرغ» في «كتاب معاني القرآن على ضوء علم اللّسان»[2].

> **لابدّ من الالتفات إلى الأسلوب اللّغوي المستخدم للوصول إلى المعنى الإلهي الباهر المراد الوقوف عليه، فقد يكون تجاهل اللّغة سببا من أسباب فَقْدِ وإغفال المعنى المرادَ إيصاله لعموم المخاطبين**

فمثلا حينما تكلّم الله سبحانه عن المناجاة بالإثم والعدوان قال «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ»[3] فجاءت كلمة المعصية مبسوطة التّاء فتكون دلالتها أنّ معصيتهم للرّسول معصية عامّة، فلم يطيعوه في شيء بعكس لو كانت بتاء مربوطة تكون معصية مقيّدة، يطيعونه في شيء ويعصونه في شيء آخر، فهذا معنى قد يستفاد من ربط وبسط التّاء فكيف يفعل المترجم لإدراك هذا المعنى وهو يترجم بلغة لا تعرف بسطا ولا ربطا؟ فاللّغة العربيّة لغة حيّة ليّنة متجدّدة[4] تدرك ذلك حتّى من تنوّع خطوطها وكثرتها، فهذا خطّ النّسخ وخطّ الثّلث وخطّ الرّقعة وهذا الخطّ الكوفي والمغربي والدّيواني والفارسي. وأنت تكتب الحروف العربيّة تدير يدك يمنة ويسرة صعودا وهبوطا خطّا ودائرة، تحسّ كأنك ترسم وأنت تكتب، أمّا غيرها من اللّغات كالانجليزيّة والفرنسيّة فهي لغة خشبيّة بالدّرجة الأولى تكثر فيها خطوط مستقيمة تشكّل بها حرفا، أقصى ما تجده دائرة أو نصف دائرة.

معنى إلهي : ولا شكّ أنّ هذه الحروف والكلمات العربيّة القرآنيّة حاملة لمعاني إلهيّة مباركة كريمة شرّفت بها العربيّة دون غيرها من اللّغات، ومن ثمّ فلن تستطيع أيّ لغة كيفما كانت أساليبها وجذورها وجذوعها وكلماتها أن تحمل المعاني الإلهيّة العظيمة، وهذه خاصّية تختصّ بالعربيّة فقط فهي الوحيدة التي تستطيع أن تدرك المعنى المراد من الآية[5] ، بل قد تدعوك إلى معان أخرى غير ظاهرة فتحصل على معان تتعلق بالسّياق أو بالعموم أو بالإجمال أو بالكناية أو بالمجاز ، فمثلا قوله تعالى «وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ»[6] فهو دعوة إلى سؤال أهل القرية وأصحاب العير برفع المجاز طبعا، وقد يقتضي السّؤال كذلك دعوتهم له بالنّظر في حال القرية وأوضاعها الماديّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وحال العير ووضعها الجسدي والصّحي من هزل وسمنة، فتكون الحالة معبّرة أكثر من المقال، فهذه المعاني وغيرها قد تدرك أثناء التّدبّر والتفكّر والتّذكّر، ومن ثمّ لا زال القرآن في كلّ قرن يفسّر وكلّ تفسير يغاير التّفسير السّابق، وأهل العلم يتحدّثون اليوم عمّا يقارب 5000 تفسيرا للقرآن الكريم، بمعنى أنّه في كلّ عصر يحتاج

القرآن لتفسير وكأنّ المعاني الإلهيّة متجدّدة ومستمرة ومتولّدة وهي كذلك، فقد يفسّره عالِم اليوم وكأنّه أُنزل اليوم ويقرأ الأية أنزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلّم وكأنها تنزل عليه الآن. هذا الأمر يطرح إشكالا للتّرجمة التي من علاماتها الرّكود والحصر والإقبار، فالتّرجمة تقيّد حرف بحرف آخر مغاير له، وإذا اختلف التّعبير عن حرف بحرف آخر فلا شكّ يختلف المعنى بل قد يصار إلى التّضاد والتّقيض كمن ترجم قوله تعالى «هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ» (7) حرفا بحرف فجعل النّساء سروالا يلبسه الرّجال، والرجال فستانا تلبسه النساء. الأمر الذي استدعى بنا الوقوف على هذا الإشكال : هل التّرجمة تعبير وترجمة عن حرف أم معنى؟ فإن كانت ترجمة لحرف – وهي كذلك – فإنّها مجحفة بحقّ معاني القرآن التي تكون مراده أكثر من الحروف والمباني، فلا شكّ أنّ المسلم لا يتمسّك بحرف القرآن ليضيع معناه، وإلاّ لما عمل عامل بالقرآن، فيكفي كلّ واحد منا أن يكتب القرآن بماء ذهب زوجته وكفاه ذلك، لكنّ المراد فهم القرآن وتدبّره والعمل به.وإن كانت ترجمة لمعنى – وقد حاول بعضهم فعل ذلك – فإنّها ستجحف بالأسلوب اللّغوي والبلاغي الذي قد يحمل أكثر من النّصف في بيان المعنى الإلهي، فإذا أغفلت التّرجمةُ الحرفَ وترجمت للمعنى تكون بذلك قد تخلّت وأغفلت نصف المراد وهو إشكال في حدّ ذاته .

ومن ثمّ فالتّرجمة لا تعدو أن تكون معبّرة عن شيء ممّا جاء في القرآن معنى فقط، أمّا حرفا فأنّى لها ذلك لأنّها لن تترجم العربيّة بالعربيّة، فلا كلام عن الحرف إذن وإنّما الكلام عن المعنى. ولهذا فعلى المترجم أن يكون متقنا للّغة العربيّة اتقانا يمكنه من فهم التّقابل والتّضادّ والمجاز والكناية والجناس والطّباق وغيرها حتّى يستطيع أن يصل إلى المعنى تعبيرا وترجمة، فتكون التّرجمة فقط مقرّبة للمعنى لا معرّفة به ريثما يتعلّم المخاطب لغة الخطاب، فالتّرجمة فعل مرحليّ يستغنى عنه في لحظة تعلّم النّاس للغة القرآن فلا يتعامل معها معاملة القرآن.

الهوامش

(1) سورة القمر - الاية 17 .

(2) Die syro-aramäische Lesart des Koran. Ein Beitrag zur Entschlüsselung der Koransprache.Das Arabische Buch, Berlin 2000

(3) سورة المجادلة - الآية 3 .

(4) وهي فكرة أخذتها من شيخنا العلامة مصطفى بنحمزة في أحد دروسه حيث يقول أن تنوع الخطوط العربية وأشكالها وطرق رسم الحروف دليل على حياة اللغة وليونتها بل حتى دليل على نفسية وحساسية اللغة العربية .

(5) للتوسعة في ذلك راجع مقالنا «اللغة العربية أفضل اللغات على الإطلاق» وهو عبارة عن تفريغ محقق لأحد أجوبة شيخنا مصطفى بنحمزة على سؤال طرح عليه في اللغة العربية .

(6) سورة يوسف الآية 28 .

(7) سورة البقرة الآية 187 .

تحيّة إلى روح الشهيد

11 مارس 1978
دلال المغربي

يزخر التاريخ الفلسطيني بما قدمته الفدائيات الفلسطينيات من تضحيات من أجل تحرير وطنهن المسلوب، ولا شك أن دلال المغربي بما قدمته، كانت من أبرز اللاتي حفرن بتضحياتهن طريقًا يهتدي به كل من أراد أن يسلك طريق المقاومة... دلال قادت عملية الشهيد «كمال عدوان» داخل الكيان الصهيوني وقد استُشهدت عروس يافا، ومعها فرقتها، بعد أن كبدت جيش الاحتلال حوالي 30 قتيل، وأكثر من 80 جريحًا، حسب ما أعلنته قوات الاحتلال. ومازال جسد الشهيدة دلال المغربي محتجز لدى الاحتلال.

الشهيدة دلال والحافلة التي نفذت بها العمليّة

الشهيدة بزي المقاومة ..مع أفراد مجموعتها

المجرم يهود باراك يعبث بجثة الشهيدة بعد انتهاء العمليّة

الوحي الإلهي والوعي الإنساني

عادل دمق
«باحث في التحليل النفسي النظري»
aklnakll@gmail.com

إضاءات

* « أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»[1].

* « تبارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا» [2]

* «أرأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا» [3].

* « نجد العقل يسعى بلا كلل وراء المطلق الضّروري ويرى نفسه مضطرّا الى التّسليم بوجوده، دون أن يكون لديه وسيلة تمكّنه من تفهم طبيعته، وما أشدّ ما تكون سعادته لو وفق الى العثور على التّصوّر الذي يتّفق مع هذا الافتراض» [4].

* « لو أمعنّا التّفكير في الفشل المحزن الذي تمنى به اجراءاتنا للوقاية من التّعاسة لشرعت تراودنا الشّكوك بأنّ ثمّة قانونا ما للطبيعة التي لا تقهر يتوارى هنا أيضا عن الانظار، وأنّ هذا القانون يتعلّق هذه المرّة بتكويننا النّفسي بالذّات» [5].

ما أوّل الزّمان؟ وما أوّل المكان؟ وما أوّل الإنسان؟ وما أوّل الوعي؟

هذه أبرز الأسئلة المركزيّة التي شغلت الفكر الإنساني على الإطلاق، ولأنّ الإنسان ليس خالق نفسه، ولا مصدر ذاته، ولا منبع هدايته، فإنّه بطريق الاضطرار يعود في تفسير الكينونة للعلاقة بينه وبين قوةٍ وسلطةٍ خارجةٍ عنه، ويظلّ يحاول الجمع بين الحقائق الماثلة أمام بصره وبين مايرى أنّه الحقّ في بصيرته، لكنَّ ابتعاده عن هداية الوحي[6] في كثير من المحاولات التّفسيريّة والتّنظيريّة - يقع في محاولة التّرجيح بين أقوال نُظَّارٍ سبقوه في محاولة الجمع بين طرفي العلاقة، ويجد نفسه في الغالب بين ثلاث طرائق تفسيريّة، اثنتان منهما حدّية، والثّالثة توفيقيّة، فالأولى طريقة من شعر بالعجز في أمام القوى المطلقة، فانطلق من مشيئة الخالق وتجاهل كينونة المخلوق، وضدّها طريقة من وثق في قوّة الذّات، فعظم العقل -كما يدّعي- وتجاهل واهب العقول والمعقول! والثّالثة الطّريقة التّوفيقيّة وهي التي حاولت الجمع بين سلطة ومنطوق الخالق من جهة، وسلطة ومنطق المخلوق من جهة أخرى، فأعملت فكرها في النّص المقدّس السّماوي أو ما يسمى «النّقل»، وفي التّصوّر والانطباعات البشريّة أو ما يسمّى «العقل»، وحاولت التّوفيق والمصالحة بينهما.

> **لأنّ الإنسان ليس خالق نفسه، ولا مصدر ذاته، ولا منبع هدايته، فأنّه بطريق الاضطرار يعودفيتفسيرالكينونة للعلاقةبينه وبين قوةٍ وسلطة خارجة عنه، ويظلّ يحاول الجمع بين الحقائق الماثلة أمام بصره وبين مايرى أنّه الحقّ في بصيرته.**

لو تأمّلنا قصّةَ آدم عليه السّلام أوّل البشر، لوجدنا أنّ الله بعد خلقه له ونفخه الرّوح فيه، ألهمه وعلمه وخاطبه. ألهمه الأوليات والقوى الضّرورية، وعلّمه الأسماء كلّها، وخاطبه بالأمر والنّهي، وهذه كلّها داخلةٌ في مفهوم الوحي الإلهي للأنبياء عليهم الصّلاة والسلاّم، ومن هذه النّقطة تحديداً نكتشف جوهر الصّلة، وأُسّ المسألة، وأصل العلاقة بين الوحي والوعي؛ إذ أنّ الوحي الأول هو خطاب الله تعالى لآدم، وبهذا الخطاب اجتمع الخلق والأمر الإلهي في آدم؛ فالله خلقه ونفخ فيه الرّوح، فتجلّى فيه الكمال من جهة الخلق، ثم خاطبه وحياً بالأمر والنّهي والوعد والوعيد، فتجلّى فيه الكمال من جهة الأمر؛ وبقي على آدم الاجتهاد في الاتباع في كلّ حياته وحالاته، وهكذا انتقلت هذه العلاقة وهذه المعادلة إلى بني آدم، ولم ولن تنفك عنهم أبداً؛ ولذا فإنّ كلّ موافقةٍ لمراد الخالق سبحانه في أمره تنطق بها ألسنة البشر أو تتّجه لها مراداتهم أو تقع عليها أعمالهم، هي من بركة هذا الأصل وهذه الصّلة، وهي دليلٌ على بقاء خِلْقَةِ الله وفطرته وأصل مراده وحكمته في النّفوس التي لا يمكن أن تتبدّل وإن طالها التّغيير واجتيال الشّياطين، قال صلّى الله عليه وسلّم فيما يرويه عن الله - تبارك وتعالى - : «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»[7]

هذه هي الصّلة الأولى، التي ينبغي تدبّرها وتأمّلها جيداً، ويجب الانطلاق منها في بناء المفاهيم لنظام الوحي الإلهي والوعي الإنساني، وإن وصف الوحي الخاتم لاصطفاء الله لآدم وتعليمه وأمره ونهيه وابتلائه،

إنّ تجلّيات قصّة آدم عليه السّلام وأبعادها هي مفاتيح يقينية أوّلية لفهم علاقة اللّه بالإنسان، وصلة الوحي الإلهي بالوعي الإنساني.

واستخلافه في الأرض، واستجابته، وسلوكه في الجنة، ومعصيته، وتوبته.

وتجليات قصة آدم عليه السلام وأبعادها لهي مفاتيح يقينية أوّلية لفهم علاقة الله بالإنسان، وصلة الوحي الإلهي بالوعي الإنساني، وإنّ كلَّ فلسفةٍ تتجاهل هذه الأوليات اليقينيّة التي دلّ عليها الوحي لتجد نفسها في مرحلة من المراحل مضطرةً إلى ابتداع ما يحلّ محل هذه الأوليات ويقوم مقامها من تصوّرات ظنّية، ومفاهيم محتملة، تثمر جملةً من الفرضيّات والمصطلحات المضطربة، وإنّ وصف الوحي الخاتم لإهباط الله تعالى لآدم وزوجه وإبليس إلى الأرض هو مفتاح فهم قصّة الإنسان في الأرض، ونشأة المجتمع البشري، وعلاقة الإنسان بظرفه المكاني والزّماني والحالي، واجتهاده في الاستجابة لهدى الله تعالى وترجمة هداه ضمن هذا الظرف.

ولذا فإن النظريات التي لم تنطلق من مركزيّة قصّة آدم ما قبل الإهباط إلى الأرض اضطرّت لابتكار عالمٍ للمثل ومدنٍ خياليّة للحقّ والخير والجمال. والنّظريات التي لم تنطلق من مركزيّة قصّة آدم ما بعد الإهباط اضطرت لابتكار أصل الوجود الإنساني في الأرض. والنظريات التي لم تنطلق من مركزية المستقر والمتاع وقعت في الجدليّات الزّمانيّة والمكانيّة. والنّظريات التي لم تنطلق من مركزيّة العداوة مع الشّيطان تباينت في تفسير الشّر الواقع في العالم وتحديد العدوّ ومعيار العداوة. والنّظريات التي لم تنطلق من مركزيّة الهداية الإلهيّة اضطربت في ابتكار مناهج ومفاهيم ومضامين بشريّة لدلالة البشر على الكمالات والمعاني!

وفي موضوع المعنى والمفهوم الملازم لكينونة الإنسان وحياته، نجد أنّ الإنسان منذ وُجِد وهو دائرٌ بين مطلوب من خارجه، ومرغوبٌ من داخله، وأعلى مطلوبٍ ماكان من الخالق سبحانه، وأدنى مرغوبٍ ماطلبته النفس ووسوس به الشّيطان، فهو بين سلطتين، وبين خطابين، ويبقى فعلُ الإنسان واختياره متردّدا بين ذا وذاك، وذلك بحكم سنةٍ وحكمةٍ كونيّة قدرية تجمع بين إلهيّة الخالق وعبوديّة المخلوق، وبين أمر الرّب واختيار العبد، وبين الإلهام القسري والكسب الطّوعي، وبين هداية الوحي واستجابة الوعي، وهذه العلاقة هي عينها ما يُفسر ما وقع لأبينا آدم عليه السلام في أول الأمر، قال الله: «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ»[8] .

ومع ظهور استقلال فعل الخالق وطلاقته، وتبعيّة فعل المخلوق ومحدوديّته، وظهور التّوافق بين الكوني والشّرعي في هداية الوحي، إلاّ أنّ كثيراً من الأطروحات الفلسفيّة ضخّمتْ الكلام عن حالات النّشاز، وصور اختلال العلاقة، وكثيرٌ منها قائمٌ على افتراض التّكافؤ أو التّنازع بين طرفي العلاقة، فظهرت النّظريات الوجوديّة التي لاتؤمن بالإله، والمادّية التي لاتؤمن بالقدر، والعبثيّة التي لاتؤمن بالحكمة، والنّسبية المطلقة

التي لاتؤمن بقيمةٍ مركزيّة في الوجود، وظهرت منظوماتٌ معرفيّة فيها ألوانٌ من الوهم البشري المُنْبَتّ عن حقائق الوحي وهداية السّماء، والتي لازال جديدها ينقض قديمها بشكلٍ يدعو لإعادة النّظر في أصل العلاقة، وجوهر الصّلة.

إنّ الإنسان بحاجة للتّجديد عموماً، وفي المفاهيم المركزيّة على وجه الخصوص، بحاجة للتّجديد الذي يقرّبه من الحقائق ويباعده عن الأوهام، ويكشف له البصر ويجلّي له البصيرة أكثر من ذي قبل ليرى الواقع ويهتدي للمتوقّع، ولا تجديد إلاّ بالعودة لأصل الكينونة، وأوّل الأمر، ثمّ النّظر في المفاهيم والمقاربات التّاريخية وتقييم علاقتها بالكينونة، وفاعليتها للظّرف الكائن، وصلاحها لما سيكون، عنئذٍ لا وصاية إلاّ للحقّ، ولا نكاية إلاّ في الباطل، وما بينهما مجال متفاوتٌ للنّظر والاجتهاد المتجدّد، ومتسعٌ للوعي والفكر المستوعب، الذي يقترب بحسب اجتهاده من الحقّ والحقيقة في زمان دون زمان، ومكان دون مكان، وحالٍ دون حال.

إنّ الإنسان بحاجة للتّجديد الذي يقرّبه من الحقائق ويباعده عن الأوهام، ويكشف له البصر ويجلّي له البصيرة أكثر من ذي قبل ليرى الواقع ويهتدي للمتوقّع

إنّ الوحي هو مصدر أوليّات الإنسان والحياة والكون، ومن رحمة الله بنا أن تكون هذه الأوليّات مدعومةً بنظمٍ عدّة، فالخلق نظام، والتّسوية نظام، والرّوح نظام، وتعليم الأسماء نظام، والعهد والإشهادُ نظام، والفطرة نظام، والآيات نظام، والنّبوات نظام، وكلّ ذلك متضمّنٌ في الوحي الخاتم ولاشكّ. ألا يحقّ لنا أن نجدّد مفهوم الوعي، ونراجع الصّلة بالوحي، بعد كلّ هذه الأنظمة المتعلّقة بالكينونة الإنسانيّة؟! وكيف يجوز لنا أن نركنَ إلى فرضيّاتٍ ومقولاتٍ بلا أنظمة كونيّة ولادعائم فطريّة، ثم نسمّي هذا عقلاً ومنطقاً فطريّاً، ثم نُجهِدُ أنفسنا في موائمة مفاهيم النّقل حتّى يقبلها هذا العقل!.

« وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ» - «رُبَّ مُبلَّغ أوعى من سامع»

بين الوعي والعلم وفاقٌ وافتراق، فهو مرادفٌ له في الجملة، لكن هناك فرقٌ بين مطلق العلم بالشيء والوعي به، فمطلق العلم أوّله: ارتفاع الجهل الجزئي، وقانونه السّلطان والحُجة والبرهان، وغايته الأظهر والأقرب الخشيةُ، إذ أنّه كلّما زاد فضاء علم الإنسان انحسرت رقعة المجهول لديه، وقام باعث الاعتراف بالخالق المدبّر العليم الخبير وسعة علمه وإحاطته فيثمر ذلك تواضعاً وخشية في نفس الذّات العالمة ولابدّ.

وأمّا الوعي فأوله العلم الكلّي بالشّيء على وجه الاستيعاب، وقانونه الفهم المتجدّد بتجدّد الهداية والدّراية، وغايته الأظهر والأقرب البصيرة، إذ كلّما تجلّت الكلّيات وتجمّعت في الذّهن، ظفر الإنسان بما يَلُمُّ عقله وشتاته بنواميس وقوانين منسجمة تحكم عالمه المتنوّع والمتمازج، ومع تعاضد هذه الكلّيات، وانتظام هذه القوانين يمنح الإنسان خبرةً وبصيرةً وتذكرةً في التّعامل مع ما فوقها حجماً، ومابعدها وقوعاً، ولذا قال الله تعالى «لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ» [9]، بعدما قصّ علينا قصّة ثمود وعاد وفرعون ومن قبلهم، والمؤتفكات بالخاطئة وماحصل لهم.

واستخلافه في الأرض، واستجابته، وسلوكه في الجنة، ومعصيته، وتوبته.

وتجليات قصة آدم عليه السلام وأبعادها لهي مفاتيح يقينية أوّلية لفهم علاقة الله بالإنسان، وصلة الوحي الإلهي بالوعي الإنساني، وإنّ كلَّ فلسفةٍ تتجاهل هذه الأوليات اليقينيّة التي دلّ عليها الوحي لتجد نفسها في مرحلة من المراحل مضطرةً إلى ابتداع ما يحلّ محل هذه الأوليات ويقوم مقامها من تصوّرات ظنّية، ومفاهيم محتملة، تثمر جملةً من الفرضيّات والمصطلحات المضطربة، وإنّ وصف الوحي الخاتم لإهباط الله تعالى لآدم وزوجه وإبليس إلى الأرض هو مفتاح فهم قصّة الإنسان في الأرض، ونشأة المجتمع البشري، وعلاقة الإنسان بظرفه المكاني والزّماني والحالي، واجتهاده في الاستجابة لهدى الله تعالى وترجمة هداه ضمن هذا الظرف.

> **إنّ تجلّيات قصّة آدم عليه السّلام وأبعادها هي مفاتيح يقينية أوّلية لفهم علاقة اللّه بالإنسان، وصلة الوحي الإلهي بالوعي الإنساني.**

ولذا فإن النظريات التي لم تنطلق من مركزيّة قصّة آدم ما قبل الإهباط إلى الأرض اضطرّت لابتكار عالمٍ للمثل ومدنٍ خياليّة للحقّ والخير والجمال. والنّظريات التي لم تنطلق من مركزيّة قصّة آدم ما بعد الإهباط اضطرت لابتكار أصل الوجود الإنساني في الأرض. والنظريات التي لم تنطلق من مركزية المستقر والمتاع وقعت في الجدليّات الزّمانيّة والمكانيّة. والنّظريات التي لم تنطلق من مركزيّة العداوة مع الشّيطان تباينت في تفسير الشّر الواقع في العالم وتحديد العدوّ ومعيار العداوة. والنّظريات التي لم تنطلق من مركزيّة الهداية الإلهيّة اضطربت في ابتكار مناهج ومفاهيم ومضامين بشريّة لدلالة البشر على الكمالات والمعاني!

وفي موضوع المعنى والمفهوم الملازم لكينونة الإنسان وحياته، نجد أنّ الإنسان منذ وُجِد وهو دائرٌ بين مطلوب من خارجه، ومرغوبٌ من داخله، وأعلى مطلوبٍ ماكان من الخالق سبحانه، وأدنى مرغوبٍ ماطلبته النفس ووسوس به الشّيطان، فهو بين سلطتين، وبين خطابين، ويبقى فعلُ الإنسان واختياره متردّدا بين ذا وذاك، وذلك بحكم سنةٍ وحكمةٍ كونيّة قدرية تجمع بين إلهيّة الخالق وعبوديّة المخلوق، وبين أمر الرّب واختيار العبد، وبين الإلهام القسري والكسب الطّوعي، وبين هداية الوحي واستجابة الوعي، وهذه العلاقة هي عينها ما يُفسر ما وقع لأبينا آدم عليه السلام في أول الأمر، قال الله: «وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ»[8] .

ومع ظهور استقلال فعل الخالق وطلاقته، وتبعيّة فعل المخلوق ومحدوديّته، وظهور التّوافق بين الكوني والشّرعي في هداية الوحي، إلاّ أنّ كثيراً من الأطروحات الفلسفيّة ضخّمتْ الكلام عن حالات النّشاز، وصور اختلال العلاقة، وكثيرٌ منها قائمٌ على افتراض التّكافؤ أو التّنازع بين طرفي العلاقة، فظهرت النّظريات الوجوديّة التي لاتؤمن بالإله، والماديّة التي لاتؤمن بالقدر، والعبثيّة التي لاتؤمن بالحكمة، والنّسبية المطلقة

رضوان الله عليهم بمكانهم وزمانهم وحالهم هذا علمٌ أوّل، وسماعهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «إنّ دمائكم وأموالكم عليكم حرام» علمٌ ثاني، والوعي بالدّور المطلوب والغاية المقصودة، والحرص على بقاء المعنى الكلّي الحيويّ بعد موت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في النّاس هو علمٌ ثالث قد لا يستوعبه كلّ من شهد اللّحظة، لكن قد يعيه من غاب عنها ونُقل له، ولذا كان الحاضر «شاهداً» و«سامعاً» وهما كفيلان بالوعي إذا حضر القلب، لكن أقل أحوال هذا الأول أن يكون «مبلغاً» لهذا العلم إلى من كان غائباً لعلّه أن يكون «أوعى» له ممّن سمعه أوّل مرّة، فالعبرة بمن هو «أوعى» أي أكثر وعياً بهذا المعنى الكلّي والمقصود الأعظم مهما تغيّرت الأبعاد الثلاثيّة، لأنّه قد يقع في النّاس من يكون عارفاً بالشّهر الحرام والبلد الحرام واليوم الحرام ويرجع مُلحداً يستبيح الدّم والمال!

الهوامش

(1) سورة النور - الآية 64 .

(2) سورة الفرقان - الآيتان 1 و2 .

(3) سورة الفرقان - الآيتان 43 و44 .

(4) كانط ، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق؛ فصل : ملاحظات ختاميّة

(5) فرويد، ضنك في الحضارة.

(6) «لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (سورة الأنبياء - الآية 10) و«وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ» (سورة الشورى - الآية 52)

(7) صحيح مسلم. الحديث 2956

(8) سورة البقرة - الآيتان 35 و36.

(9) سورة الحاقّة - الآية 12.

(10) فتح الباري شرح صحيح البخاري. كتاب الحج،باب الخطبة أيام منى الحديث 1652 - ص671

التعريف بمخطوط: نوازل ابن الحاج الشهيد

د. الميلود كعواس
«أستاذ بكلية الآداب
بجامعة ابن طفيل بالقنيطرة / المغرب»
kaouassmiloud@gmail.com

مقدمة

حظي تراثنا منذ ظهور المطبعة الحديثة بالبلاد الإسلامية بعناية كبيرة من حيث طباعته وتحقيقه، إلا أن عددا ضخما منه لا يزال مركونا في بطون الخزائن الخاصة والعامة، ينتظر من ينقذه من أسر الجدران ونهش الأرضة وتخريب الإنسان. ولعل أول ما يعين على إنقاذ تلك الكنوز؛ هو خلق وعي فكري وثقافي يرتكز على التعريف بها أولا، ثم لفت الأنظار إلى أهميتها وقيمتها المعرفية والتاريخية والحضارية والفنية والجمالية، ثانيا. وهذا يحتاج إلى إيجاد مؤسسات علمية متخصصة، تتولى هذه المهمة وتشرف عليها، وهو ما تحاوله عدد من الهيئات في المشرق والمغرب.

ومن أجل الإسهام في التعريف بما خلفه الأسلاف، اخترت في هذه المقالة أن أطلع القارئ الكريم على كتاب يعتبر من عيون ما ألف في فقه النوازل عامّة وبالأندلس خاصّة، لا يزال إلى اليوم ينتظر من يخرجه من درج الرّفوف إلى عالم الطّباعة. إنّه كتاب «النّوازل» لابن الحاج الشّهيد؟ فمن هو الرّجل؟ وما قيمة مصنّفه؟

من هو ابن الحاج الشهيد؟

هو أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي الأندلسي الشهير بابن الحاج. ولد عام 458هـ. فتح الرجل عينه بقرطبة وهي يومئذ سوق نافقة في مختلف أنواع العلوم وفنون الأدب. فتتلمذ على كبار علماء عصره، فسمع من محمد بن فرج، وأبي علي الغساني، وابن الخشاب البغدادي، وأبي جعفر ابن زرق، وأبي الحسن بن حمدين، وغيرهم [1] .

استطاع الرجل بجده واجتهاده أن يرتقي سلم المعرفة سريعا، فصار «من جلة الفقهاء، وكبار العلماء، معدوداً في المحدثين والأدباء، بصيراً بالفتيا رأساً في الشورى. وكانت الفتوى في وقته تدور عليه لمعرفته وثقته وديانته»[2] .

> يعتبر هذا الكتاب من أعمدة فقه النوازل بالأندلس خاصة والغرب الإسلامي عامة، فقد كان متداولا بين الناس معروفا، وسندا يتكؤ عليه في الفقه والفتوى

ونظرا لمكانته هذه فقد تقلد القضاء بقرطبة مرتين، وكان في ذاته ليناً صابراً طاهراً حليماً،لم يحفظ له جورٌ في قضية. ولم يزل على هذه السّيرة إلى أن قتل يوم الجمعة ظلماً بالمسجد الجامع بقرطبة وهو ساجد، في صفر سنة (529هـ) [3] .

كتاب «النوازل» لأبي عبد الله ابن الحاج الشهيد (ت529هـ).

يعتبر هذا الكتاب من أعمدة فقه النوازل بالأندلس خاصة والغرب الإسلامي عامة، فقد كان متداولا بين الناس معروفا، وسندا يتكئ عليه في الفقه والفتوى[4] . كما حظي بالعناية والاهتمام من لدن العلماء عبر التاريخ، حيث قام بعض العلماء بترتيب محتوياته؛ كعبد الله بن أحمد بن محمد الغافقي (ت731هـ)، الذي رتبه في كتاب سماه «المنهاج في ترتيب مسائل أبي عبد الله بن الحاج»، كما رتبه أيضا عبد الرحمن بن محمد القيسي (ت737هـ) [5] .

وقد سلمت نسخ من هذا المصنف من عوادي الدّهر، إذ توجد منها عدّة نسخ في الخزائن والمكتبات منها:

- نسخة تامّة، تقع في خمس ومائتي لوحة، محفوظة ضمن مجموع بمدرسة أزاريف بآيت حمد بإقليم تزنيت بالمغرب، تحت رقم:23. وهي مكتوبة بخط جميل مقروء، وقد طمس الجانب الأيمن من اللّوحة الأولى، والجانب الأيسر من اللّوحة الثانية. كتب على صفحتها الأولى: «نوازل الفقيه الإمام المشاور قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن الحاج». وهي خالية من المقدّمة والخاتمة، وذكر اسم الناسخ وتاريخ النسخ.

- نسخة أخرى محفوظة بالخزانة الوطنية بالرباط المغربية تحت رقم: ج 55. وهي نسخة غير تامّة، لكنّها هي النّسخة المشهورة والمعتمدة عند جمهور الباحثين والمتخصصين.

- نسخة أخرى محفوظة بالخزانة الوطنية بالرّياض، تحت رقم: 448. وهي مكتوبة بخطّ جميل مقروء، خالية من المقدّمة والخاتمة، وذكر النّاسخ وتاريخ النّسخ. وتقع نسخة الرّياض في ستّ وستين لوحة، تتضمّن كلّ لوحة منها صفحتين. وهي مبتورة الآخر وتعتريها خروم كثيرة. وميزة هذه النّسخة أنّها مرتّبة حسب

أبواب الفقه، وكتب في رأس الصّفحة الثّانية منها: «مسائل جمعتها من كلام الفقيه «أبي عبد الله ابن الحاج» رحمة الله عليه ورضوانه لديه». ويتبيّن من صيغة العنوان أنّ هذه النّسخة ليست مكتوبة بيد ابن الحاج، فيحتمل أن تكون مكتوبة بيد أحد تلامذته أو من جاء بعدهم، وقد تكون هذه النّسخة هي الكتاب الذي رتّبه «الغافقي»، أو «عبد الرحمن القيسي» الآنف ذكرهما.

قيمة الكتاب وأهميته:

إن لنوازل «ابن الحاج» فائدة جليلة جدّا، فهي لا توفّر لنا مادّة فقهيّة تتمثّل في فتاوى لها صلة بأسئلة معينة تعود إلى عصر المؤلف فقط، وإنّما تقدم لنا فائدة عظيمة يستفاد منها في مختلف الدّراسات الفقهيّة المعاصرة، نظرا لما تتضمّنه من مبادئ في صياغة الفتوى وتنزيلها، وضوابط مراعاة المآلات والمقاصد، وقواعد في الفقه والأصول، وأسس معتمدة في الاستنباط والتّنزيل والتّخريج الفقهي، التي يعزّ وجودها في مصادرها المتخصّصة، ناهيك عما تحفل به من الإشارات التّاريخية الاجتماعيّة؛ كعادات الأفراح والأقراح، وتقاليد الملبوسات والمطعومات، وطبيعة العلاقات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسّياسيّة السّائدة خلال تلك الحقبة التّاريخيّة؛ ممّا يجعل فائدتها غير مقصورة على المشتغلين بالفقه وعلومه فحسب، بل تتعدّاهم إلى غيرهم من المتخصّصين في سائر العلوم الإنسانيّة، والدّراسات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والتّاريخيّة [6].

رغم هذه الأهمية، فلم يجد الكتاب بعد طريقه إلى نور الطباعة، ونرجو أن يخرج إلى الوجود قريبا، خاصة وأنه قد حقق مؤخرا من قبل الدكتور أحمد اليوسفي، الذي نال به درجة الدكتوراه من كلية أصول الدين بتطوان المغربية.

الهوامش

(1) الصلة، تر: 1286، 844-845. أزهار الرياض، 61/3-62. المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي، ص: 118-119. الغنية، ص: 47-48. تاريخ قضاة الأندلس، ص: 134. فهرست ابن خير، 595/2.

(2) الصلة، تر: 1286، 844-845.

(3) الصلة، تر: 1286، 845. تاريخ قضاة الأندلس، ص: 134. فهرست ابن خير، 595/2. الغنية، ص: 48.

(4) أزهار الرياض، 62/3

(5) نيل الابتهاج، تر: 288، ص: 244. الديباج، تر: 286، ص: 230.

(6) أنظر مثلا الدراسة التي قام بها أحمد اليوسفي شعيب بعنوان: أهمية الفتاوى الفقهية في كشف وقائع التجربة الأندلسية: نوازل ابن الحاج نموذجا. وأنظر ما كتبه مصطفى بن سباع ومحمد عبود تحت عنوان: جوانب من المجتمع الأندلسي خلال عصري الطوائف والمرابطين من خلال نوازل ابن الحاج. كما استفاد من المخطوط من الوجهة التاريخية إبراهيم بوتشيش في كتابه: المرابطون: المجتمع والذهنيات والأولياء.

صورة

خير من ألف تعليق

وفي عينيه... ألم وأمل

رفيق الشاهد
«مهندس»
chahed@meteo.tn

مرافعات

أصبح السّؤال متداولا : «اليوم بعد إقالة المدير العام وتعيين المدير الجديد، ما مآل المدير القديم؟» لماذا يطرح هذا السّؤال أصلا والجواب بيّن في شروط التّعيين في الخطّة الوظيفيّة وشروط الإعفاء منها؟ نقطة الاستفهام هذه قد تبقى قائمة اليوم وغدا طالما لم تنطلِ الثّورة على عقول بعض التّونسيّين وبعض آخر يرى أنّ كلمة «ثورة» لا تناسب ما حدث.

لم نتعوّد أن يعود المدير العام السّابق إلى سالف نشاطه بمكتبه الذي كان يشغله، أوّلا لأنّه شُغِل ظنّا منه أن لن يعود إليه وثانيا لأنّ هذا الظنّ كان قبل الثّورة يقينا. أمّا اليوم، وإذا ما صدق حمّة القائل « اليوم صارت ثورة»، أليس من الأجدر إعادة التّفكير وإصلاح حالنا فيعود المدير العام السّابق إلى مكتبه في أريحيّة تمكّنه من مزاولة نشاطه في مجال اختصاصه، فيفيد المؤسّسة بما توفّر لديه من خبرة وتجارب خاضها في أعلى مستوى ويسهم في رسم الأهداف وتحقيقها يد في يد مع الإدارة الجديدة.

إن كانت الثّورة لا تعني هذا، فلا بارك الله فيها.

كنّا نظنّ أنّ بعد الثّورة التي قامت على الفساد والتّسلّط واستغلال النّفوذ، أصبح المسؤول

يُسأل وأن لا أحد فوق القانون، وهو ما صدّقه كلّ عاقل حسن النيّة، بل هناك من ذهب أبعد فتوقّع أن يتخلّى مسؤولون عن مواقعهم خوفا من المساءلة والتّتبع. ولكن هيهات. فالأحزاب السّياسية كبيرة كانت أو صغيرة رأت في هذه الثّورة آفاقا واعدة، ومتحرّرة من كلّ قيد، وجدت نفسها أمام فرصة ثمينة لتثبّت قواعدها. ولكن بأيّ الوسائل في غياب الخطاب الذي تعوّدت به شعوبنا في تجربتها التّحررية وما بعدها؟ من ينسى خطابات الزّعماء بورقيبة، فرحات حشاد وجمال عبد الناصر وغيرهم، ما اعتلوا منبرا إلاّ ليتحدّثوا بلسان صدق اهتزّ إليه من حولهم، فما زادوهم إلّا إيمانا.

عديدة هذه الأسئلة، ولا يمكن للسّاسة اليوم إلاّ السّكوت حذرا أو الصّمت كرها ولكنّ التّدافع، سواء أقرّوه أو استنكروه، دفعهم إلى شراء من يحسن الخطاب. ولكن عن أيّ خطاب نتحدّث؟ خطاب الإقناع والدّعوة للتّعبئة لبناء مقومات هذا المجتمع الثّائر على الفساد والذي يرنو إلى العزّة والكرامة أم الخطاب الاستئصالي عنوانه «أنا أو لا أحد»؟

تمرّ البلاد بفترة كساد وبطالة تطول كلّ شرائح المجتمع. ولكن يبدو أنّ قطاع المحاماة والقضاء سوقه مزدهر والمحامون لا يشكون بطالة هذه الأيام. البيع كالشّراء نشط. والمرافعات من كثرتها فاضت وخرجت من تحت أبواب قصر العدالة لتنتصب على قارعة الطّريق تفوح رائحتها النّتنة تحت عنوان حقّ التّمتع بالدّفاع لضمان محاكمة عادلة. وتحت عناوين أخرى مثل المساهمة في إدارة الشّأن العام عبر المجتمع المدني أو عبر الفعل السّياسي. لهذا كلّه، تمّ انتداب مستشارين قانونيّين في صلب الأحزاب لا للدّفاع عن حقّ مهضوم ولا لبيان حقيقة تنير العدالة ولكن فقط لإرضاء الحريف الموكّل تحت راية «الحريف هو الملك». فهل نجح المحامون اليوم في تبرير كساد المحاماة بارتفاع الحناجر دفاعا عن الشّيطان؟

هؤلاء محامون أهملوا قضايا موكّليهم البسطاء وارتخى لسان الدّفاع لديهم وارتموا في أمواج تتلاطم، يخوضون فيها بسلاطة اللّسان وسفاهة البرهان فلا يزيدون هذه الأمواج العاتية إلاّ عنفا. محامون نجدهم كذلك دون حرج يتصدّرون منابر الجمعة شيوخا خطباء أو على المنابر الإعلاميّة يجادلون أكاديميّين علماء وفلاسفة. أكلّ هذا بفعل ما تلقّوه من دروس في مادّة العلوم السّياسية؟ طبعا لا . أصبح الشكّ يقينا. إنّ ما يميّز محامو هذا الزّمان هو أساليب المرافعة التي ارتكزت على طلاقة اللّسان والصّوت العالي وتصلّب الأوداج. المرافعة في ظاهرها إقناع ببيان الحقيقة وفي باطنها تأثير وإخفاء لنفس الحقيقة التي لا تخدم مصالح الموكّل.

نعم، ضمّت كلّية الحقوق منذ نشأتها العلوم السّياسية، فأنارت عقول المحامين الطّلاب وأعدّتهم لخوض التّجارب ومكّنت عددا منهم ليتصدّروا المنابر ويُدلوا بدلوهم في الشّأن العام والخاصّ. ولا أحد ينكر فضل هذه الكلّية في تكوين أجيال آمنت بالحرّية وتشبّثت بها. شرف نالته المهنة بشهادة تاريخ هذه الأمّة. وكم تمنّيت أن تُدرّس مادّتي الحقوق والعلوم السّياسية في الكلّيات الأخرى طبّ وصيدلة ولم لا الهندسيّة.

ماكينة الحرّية تدور ولا تتحرّك وتطحن كلّ من يعترضها وكذلك من يحاذيها ويسايرها من شرفاء هذا البلد.

د.نبيل غربال
«أستاذ بكلية العلوم صفاقس»
ghorbel_nabil@yahoo.fr

مستقر الشمس (ج 1)

تمثّل الآية الكريمة رقم 38 في سورة يس «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ) خبرا إلهيّا عن الشّمس وحركتها وما ستؤول إليه. نهدف من وراء هذا العمل قراءة الآية على ضوء المفاهيم والمعطيات العلميّة الحديثة مدفوعين برغبة جامحة الى تلبية حاجة معرفيّة لا تشبع الاّ بلغة العلم. ربّما يسأل سائل وما فائدة ذلك؟ استحضر دائما عندما يطرح هذا السؤال، تجربة إبراهيم (ع) حين طلب من الله تعالى أن يريه كيف يحيي الموتى وذلك لكي يطمئن قلبه. ومع الزّيادة في الايمان التي يولدها ذلك الاطمئنان، فهناك سبب آخر يتمثّل في أنّ الإنسان «مخاطب بالاعتبار بما بلغه علمه» كما قال ابن عاشور في معرض تفسيره لهذه الآية. ويعني ذلك أنّ الإنسان عندما يقرا آيات تشير الى ظواهر طبيعية أدلى العلم الحديث بدلوه في شأنها ويكون له نصيب لا بأس به من المعرفة المتعلّقة بحقائقها فلا يمكن له أن يقرأ تلك الآية بدون أن يتدبّرها وأن لا يكون له رأي فيما قيل في شأنها بل والأفضل من كلّ ذلك أن يكون التّدبر العلمي للقرآن دائمَ الحضور سواء كان موضوع الآية قد وقع تناوله علميا أو لا، إذ لا مانع من ذلك سوى الالتزام الدّقيق بما تقتضيه اللّغة.

سنبدأ إذا بمدخل لغوي حتّى ينفتح أمامنا الحقل الدّلالي لكلمتي الجري والمستقر من خلال المعاني الأصلية للكلمات التي اشتقت منها. ثم نذكر بأهم ما قيل في الآية على حسب ما اطلعنا عليه ماضيا وحاضرا، لنعرض رأينا في الأمر بعد تقديم موجز لأهمّ ما توصّل اليه العلم الحديث بعلاقة بحركة النّجوم وبالوسط الذي تتحرّك فيه وبمآل تلك الحركة.

> **المستقرّ في الآية 38 من سورة يس هو إذا إمّا اسم مكان من مادّة (ق. ر) أو اسم زمان أو مصدر ميمي وهو ما يفرضه السّياق.**

(1) مدخل لغوي

ـ المستقر

نقرأ في التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب للرّازي (ت 606 هـ) عند تفسيره للآية 98 من سورة الأنعام: «وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ» ما يلي: «قال أبو علي الفارسي: قال سيبويه (148 - 180 هـ / 765 - 796م): يقال: قرّ في مكانه واستقرّ فمن كسر القاف كان المستقرّ بمعنى القار... ومن فتح القاف فليس على أنّه مفعول به؛ لأنّ استقر لا يتعدّى فلا يكون له مفعول به، فيكون اسم مكان، فالمستقرّ بمنزلة المقرّ». فالمستقرّ في الآية 38 من سورة يس هو إذا إمّا اسم مكان من مادّة (ق ر) أو اسم زمان أو مصدر ميمي وهو ما يفرضه السّياق، فماذا تقول معاجم اللّغة في دلالة تلك المادة؟

جاء في كتاب العين للخليل ابن أحمد الفراهيدي (100 - 170هـ / 718 - 786م) في مادّة (قرّ) ما يلي: «القُرّ: وليلة قارّة ويوم قَرٌّ. والقرار المستقر من الأرض وأقررته في مقرّه ليقَرَّ، وفلان قارّ أي ساكن. ففي باب الثّنائي من القاف وبالضّبط في باب القاف والرّاء نجد معنى البرد والسّكون.»

وفي مقاييس اللّغة لأحمد ابن فارس (329 - 395 هـ/ 941 - 1004م) «القاف والرّاء أصلانِ صحيحان، يدلُّ أحدهما على برد، والآخر على تمكُّن. فالأوّل القُرُّ، وهو البَرْد، ويومٌ قارٌّ وقَرٌّ. وليلة قَرَّةٌ وقارَّة. وقد قَرَّ يومُنا يَقَرُّ. والأصل الآخَر التمكُّن، يقال قَرَّ وَاستقرَّ. والقَرُّ: مركبٌ من مراكب النِّساء.»

وفي كتابه التّحقيق في كلمات القرآن الكريم يكتب حسن مصطفوي (1336 - 1426 هـ) «إنّ الأصل الواحد في المادّة هو تمكّن مع استمرار وتثبّت وفي الاستقرار جهة الطّلب. وأمّا مفهوم البرودة فهو مأخوذ من اللّغة العبريّة كما نقلناه عن القاموس العبري، مضافا الى ارتباط وتناسب بينه وبين الأصل، فإنّ البرودة تلازم التّجمع والتّمكّن والاستقرار، فاليوم البارد يلازم السّكون ويمنع عن الحركة والعمل في الخارج».

ولمزيد استكشاف الحقل الدّلالي لمادّة (ق ر) يمكن الاستعانة ببعض مرادفاتها وهي كلمات لها معنى قريب لها. ففي التّفاسير للفقرة « فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ» من الآية 143 من سورة الأعراف هناك اجماع لغويّ على أنّ الجبل كان ثابتا وساكنا، فالقرطبي مثلا يقول: «فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ، أي فإن ثبت الجبل وسكن فسوف تراني» والرّازي يقول «كما كان مستقرّاً ثابتاً». فنحن هنا أمام معان تدور كلّها حول دوام الشّيء في مكان أو محلّ

أو على حالة معيّنة. إنّنا أمام استدامة شيء أو حالة مقابل زوالها.

- الجري

أمّا معنى الجري فنكتشفه من خلال نفس المراجع التي اعتمدناها في مادة (ق ر) .

نجد في كتاب العين في باب الجيم والرّاء «جرى، الخيل تجري. والرّياح تجري، والشّمس تجري جريا الاّ الماء فإنّه يجري جَرْيَةً».

ونقرا في مقاييس اللّغة « الجيم والرّاء والياء أصلٌ واحدٌ، وهو انسياحُ الشّيء. يقال جَرَى الماء يَجْري جَرْيَةً وجَرْياً وجَرَياناً. فأمّا السّفينة فهي الجارية، وكذلك الشّمس، وهو القياس».

> **إنّ أغلب استعمالات كلمة «تجري» في القرآن الحكيم كانت لوصف الأنهار والأنهار جمع نَهْر وهو مصدر نَهَرَ والعرب تقول نَهَرَ الْمَاءَ أَجْرَاه.**

وفي التّحقيق «إنّ مفهوم هذه المادّة أي الجري أصل واحد، وهو الحركة المنظّمة الدّقيقة في طول مكان ويعبر عنه بالانسياح يقال جرى الماء».

ولا بدّ من الإشارة أنّ أغلب استعمالات كلمة تجري في القرآن الحكيم كانت لوصف الأنهار مثل «وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ» وهي جزء من الآية 25 من سورة البقرة. والأنهار جمع نَهْر وهو مصدر نَهَرَ والعرب تقول نَهَرَ الْمَاءَ أَجْرَاهُ. وبعلاقة بالظّواهر الطّبيعية الأساسيّة التي سنتناولها بالعمق المطلوب فيما سنقترحه من تفسير للمراد الإلهي الممكن للآية 38 في سورة يس نقول أنّ جريان الماء تسبّبه قوّة الجذب الثّقالي التي تمارسها كتلة الأرض على الأجسام التي عليها وحولها. ففي انعدام أيّ قوّة مسلّطة عليه لا يمكن للماء الاّ أن يتحرّك بانسياح فيما هيئ له من مسار بفعل الثّقالة التي لا يغيب أثرها في أيّ مكان وفي أي زمان في الوجود.

فهل التزمت التّفاسير القديمة والحديثة بالمعاني التي وضعت من أجلها كلمتيّ الجري والمستقرّ وهي معان لا يمكن أن نفهم القرآن الكريم بدونها لأنّه نزل بلسان عربيّ مبين؟

(2) التفاسير : حديث السجود تحت العرش

يستشهد المفسّرون بالمأثور عند تناولهم موضوع «مستقرّ الشّمس» بحديث معروف بـ «حديث سجود الشّمس» والذي ورد بروايات مختلفة سنعتمد على اثنتين منها لإبداء رأينا فيه من خلال بعض الملاحظات. في «تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت 774 هـ)» نقرأ «قال البخاري: حدّثنا أبو نعيم، حدّثنا الأعمش عن إبراهيم التّيمي عن أبيه عن أبي ذرّ رضي الله عنه، قال كنت مع النّبي صلّى الله عليه وسلّم في المسجد عند غروب الشّمس، فقال صلّى الله عليه وسلم « يا أبا ذر أتدري أين تغرب الشّمس؟» قلت: « الله ورسوله أعلم»،

قال صلى الله عليه وسلم « فإنّها تذهب حتّى تسجد تحت العرش، فذلك قوله تعالى {وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ}». حدّثنا عبد الله بن الزّبير الحميدي، حدّثنا وكيع، حدّثنا الأعمش عن إبراهيم التّيمي عن أبيه عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تبارك وتعالى {وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا} قال صلّى الله عليه وسلّم « مستقرّها تحت العرش» هكذا أورده ههنا». سنكتفي بإبداء بعض الملاحظات حول هذا الحديث وليس في التّفاسير المتعلّقة به. الملاحظة الأولى التي تفرض نفسها عند محاولة فهم معنى الحديث هي وجود روايات عديدة أخرى له ولقد سقنا منها صيغتين فقط وهما المذكورتان في تفسير ابن كثير وهي كما نرى غير متّفقة على الجهة المبادرة بطرح السّؤال المتعلّق بمآل الشّمس حين الغروب وهو السّياق الفلكي الذي يتنزّل فيه الحديث. ففي بعضها يكون طارح السّؤال النّبي عليه السّلام وفي البعض الآخر يطرح السّؤال أبا ذر. وهذا في حدّ ذاته مشكل، باعتبار أنّ طرح السّؤال والجهة الطّارحة مسائل تحمل نسبة لا بأس بها من عناصر فهم الحوار وما جاء فيه. والملاحظة الثّانية فهي استعمال كلمتي تغرب وتذهب لنفس الظّاهرة وهو أمر مربك الاّ أن يكون للكلمتين معنى واحد وهذا مستبعد في لسان العرب المعروف بالبيان اذ لكلّ كلمة معنى محدّد يميّزها عن أيّ كلمة أخرى مهما كانت مساحة الالتقاء في المجال الدّلالي. أمّا الملاحظة الثّالثة فهي أنّه لا بدّ من الإقرار بأنّ المقاربة العلميّة لهذا الحديث صعبة وربّما غير ممكنة أصلا باعتبار وجود كلمات غير مستعملة في المجال العلمي على الأقل في وقتنا الحاضر مثل السّجود والعرش. فاذا كان السّجود لغة يدلّ على تطامُن وذلّ كما جاء في مقاييس اللّغة، ونحن نعلم أنّ كلّ الكائنات تسجد لله، فيمكن القول أنّ الأمر قد يكون توضّح نسبيّا إذا اعتبرنا حركة الشّمس المنتظمة خضوعا لا إراديّا طبعا لقوانين وقع اكتشافها حديثا. أمّا عن العرش والذي يدلُّ لغة على ارتفاعٍ في شيء مبنيّ كما جاء في مقاييس اللّغة، فإنّ الموضوع يتطلّب تحديد هذا البناء حتّى نفهم معنى تحته أو خلفه كما في بعض الرّوايات. لذلك سنعرض عن هذا الحديث المنسوب إلى النّبي صلّى الله عليه وسلّم لا لموقف رافض له بل لصعوبة مقاربته بالمفردات والمفاهيم العلميّة، فنحن نجهل حقيقة العرش الذي لا يعلم حقيقة كيفيّته وهيئته وحجمه وصفته إلاّ الله وحده.

> **"اذا كان السّجود لغة يدلّ على تطامُن وذلّ كما جاء في مقاييس اللّغة، فيمكن القول أنّ الأمر قد يكون توضّح نسبيّا إذا اعتبرنا حركة الشّمس المنتظمة خضوعا لا إراديّا طبعا لقوانين وقع اكتشافها حديثا"**

كما نرى أنّه من الصّعب أن نقول أنّ هذا الحديث مفسّر للآية باعتبار أنّ التّفسير يعني بيان الشّيء وايضاحه في حين أنّ متن الحديث يزيد العقل العلمي إرباكا باستعماله كلمات يصعب القبض على مدلول لها يمكن التّعرف عليه علميّا على الأقل حتّى يوم النّاس هذا في حين أنّ الآية التي يفترض أنّ الحديث مفسّر لها يمكن التّعاطي معها من خلال آخر المكتسبات العلميّة في مجال علم الكون بالالتزام الكامل بمقتضيات اللّسان العربي كما سنسعى الى بيانه. ولا غرابة في الأمر إذ تأتي الآية 38 من سورة يس في سياق يعدّد فيه الله تعالى

> هنـــاك مـــن المفسّرين من ذهب الى أنّ «المستقر» هو اسم مكـــان قرارها وآخـــرون ذهبوا الى أنّ المـــراد بالمستقر هو مستقرّ زمانـــيّ أي منتهى سيرها

الآيات أي الأدلّة والعلامات التي لا بدّ أن تدفع الى الشّكر لا الى الإنكار ولا يمكن أن يحصل ذلك الاّ من خلال التّفكّر والتّدبّر في موضوع قابل للدّرس بما يقتضيه المنهج العقلي من مشاهدة ورصد وصياغة نظريّات قادرة على القيام بتوقّعات يمكن التّحقق منها تجريبيّا ووضع القانون وهو ما يتوفّر في موضوع حركة الشّمس ومآلات تلك الحركة والذي يمثّل محور اهتمامنا في هذا المبحث. ولا بأس أن نذكّر في الأخير بالتّفسير المعتمد على الحديث المنسوب للنّبي صلى الله عليه وسلّم والذي نجد معناه عند الطّبري كالتّالي «وقوله: {والشَّمْسُ تَـجْرِي لِـمُسْتَقَرّ لَهَا} يقول تعالـى ذكره: والشّمس تـجري لـموضع قرارها، بـمعنى: إلـى موضع قرارها وبذلك جاء الأثر عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم» ويعني موضع سجودها تحت العرش كما رأينا في الحديث. ونظيف أخيرا ما قاله ابن عاشور (ت 1393 هـ) في تفسير التّحرير والتّنوير في حديث السّجود «وكلام النّبي صلّى الله عليه وسلّم هذا تمثيل لحال الغروب والشّروق اليوميين. وجعل سجود الشّمس تمثيلاً لتسخرها لتسخير الله إيّاها كما جعل القول تمثيلاً له في آية {فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين} (فصلت 11)».

التّفاسير القديمة

أن تتبع التّفاسير من خلال ما كتب بداية من القرن الأول الهجري الى يوم النّاس هذا يبيّن أنّ هناك من المفسّرين من ذهب الى أنّ المستقر هو حدّ معين تنتهي اليه الشّمس ولا تتجاوزه فيكون المستقرّ عندئذ اسم مكان قرارها وآخرون ذهبوا الى أنّ المراد بالمستقر هو الوقت والأجل الذي تجري اليه الشّمس ولا تتعدّاه فيصبح المستقرّ مستقرّا زمانيّا أي منتهى سيرها. ومنهم من قال بالإثنين معا. ففي حالة أنّ ذلك المستقرّ هو بالنسبة للمكان حاول المفسرون استكشاف المراد الإلهي منه وذلك من خلال ما ينتج عن حركة الشّمس من مواضع في «القبّة السّماوية» سواء في حركتها اليوميّة أو السّنوية. فالشّمس تشرق كلّ يوم من نقطة في الأفق تختلف عن اليوم الذي يليه والذي قبله وكذلك عند الغروب فتتغيّر في الأفق مواضع شروقها وغروبها بين نقطتين قصويين خلال سنة كاملة لا تتجاوزهما وهي ما اعتبروها مستقرّاتها مثل الكلبي كما ورد في «تفسير النّكت والعيون للماوردي (ت 450 هـ)». كما أنّ الشّمس عندما ترتفع خلال النّهار فإنّ غاية ارتفاعها صيفا ويسمّى الأوج يختلف عن غاية انخفاضها شتاء وهو الحضيض. وبما أنّها تتحرّك بين ذينك الموضعين الأقصيين خلال السّنة، اذ كلّما بلغت حدّا ترجع فتعود الى أن تبلغ الحدّ الثّاني بدون أن تتجاوزهما فقد اعتبر كلّ حدّ أقصى مستقرّا لها وهو حدّ معيّن ينتهي إليه دورها، «فشبّه بمستقر المسافر إذا قطع مسيره» كما يرى البيضاوي (ت 685 هـ) في تفسير أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل وقد قال أيضا في نفس الظّاهرة أنّ «المستقرّ

هو كبد السّماء» لأنّ «حركتها فيه يوجد فيها بطء بحيث يظنّ أنّ لها هناك وقفة».

إنّ الشّمس تغيّر مواضعها الظّاهرية باستمرار فيما يبدو «قبّة سماويّة» وذلك بشكل دوريّ دورته سنة، وقد اعتبر كلّ موضع تبلغه ولا تتجاوزه سواء في رحلتها اليوميّة أو السّنوية بل ترجع منه مستقرّا للشّمس ظنّا من المفسّرين بأنّ للشّمس وقفة في كلّ موضع وتشبيها بمستقرّ المسافر إذا قطع مسيره، فالإنسان المسافر حين يبلغ مقصوده بعد أن يقطع مسافة ما فإنّه يقضي حاجته ثمّ يرجع الى المكان الذي ابتدأ منه سفره (القرطبي ت 671 هـ).

ان اعتبار المواضع القصوى في حركة الشّمس مستقرّات لها في التّفاسير القديمة سواء للرّجوع منها عند بلوغها أو لبطء في حركتها عندها لا يمكن الاّ أن يعكس مستوى المعارف الفلكيّة في زمن التّفسير

أمّا أولئك الذين رأوا أنّ المستقر هو بالنسبة للزّمان أي أنّ المستقرّ هو اسم زمان القرار فيقولون أنّه يعني «لوقت لها إلى يوم القيامة» مقاتل بن سليمان (ت 150 هـ) أو «انقطاع جريها عند خراب العالم» (البيضاوي، ت 685 هـ) وهي أقوال لا تضيف شيئا باعتبار أنّ كلّ شيء هالك الاّ وجهه تعالى أو «لحدّ لها مؤقّت مقدّر تنتهي إليه من فلكها في آخر السّنة، شبّه بمستقرّ المسافر إذا قطع مسيره» كما كتب الزمخشري (ت 538 هـ) في تفسير الكشّاف.

ان اعتبار المواضع القصوى في حركة الشّمس مستقرّات لها في التّفاسير القديمة سواء للرّجوع منها عند بلوغها أو لبطء في حركتها عندها لا يمكن الاّ أن يعكس مستوى المعارف الفلكيّة في زمن التّفسير وربّما حتّى تطويعا للّغة باعتبار أنّ المسافر ليس له حركة دوريّة حتّى تشبه المواضع الدّورية للشّمس سواء تلك التي تبلغها ولا تتعدّاها أو تلك التي تبطئ حركتها عندها بمستقرّه. نحن نعلم الآن علم اليقين أنّ حركة الشّمس التي بنيت عليها تلك التّفاسير ظاهريّة وليست حقيقيّة وأنّ الحركة الحقيقيّة لم تكتشف الاّ بداية من عام 1783م من طرف فريدريك ويليام هيرشل (1738 –1822م). إضافة لذلك فإنّ اعتبار تلك المواضع مستقرّات كان من جهة التّشبيه بحركة المسافر الذي يقطع مسيره وليس تقيّدا بما يقتضيه معنيّا الأصلان الصّحيحان للجذر الذي اشتق منه لفظ المستقرّ أي (ق ر) فيكون عندها المستقرّ هو موضع التّمكن مع استمرار وتثبّت مع ما يلازم ذلك من برودة كما رأينا في المدخل اللّغوي. كما يجب الإشارة الى أنّه ليس ثمّة ما يوحي بالتّحرك من جديد وبشكل دوري في معاني مادّة (ق ر) كما يريد أصحاب التّفسير. وإن كان لهؤلاء ما يبرّر تفسيرهم بحكم انعدام الوسائل النّظرية والتّقنية في زمنهم للتّعرف على حقيقة الشّمس وحقيقة حركتها والوسط الذي تتحرّك فيه والقوانين النّاظمة لكلّ ذلك فإنّ ما لا يمكن قبوله هو أن يواصل المحدثون اعتبار الظّاهر من حركة الشّمس حقيقة وإنتاج تفاسير تسقط عند أول فحص علمي دقيق.

في الجزء الثّاني من هذا المقال سنتطرق إن شاء الله للتّفاسير الحديثة ثم نطرح ما نراه مرادا الهيّا ممكنا من الآية «والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم».

9 أسئلة

للروائي البحريني الأستاذ أحمد المؤذن

أجرى الحوار: المودن موسى
«باحث في التاريخ والأدب المغربي»
moussa.elmouden49@gmail.com

(1)

لكلّ منّا سيرة، يبني عليها أفقه، فمن هي شخصيّة أستاذنا «أحمد المؤذن»؟

شابّ من عامّة النّاس ينعزل بين وقت وآخر بين رفوف كتبه، يبحر في عوالم أخرى بين القصّة والرّواية والمقال. يحبّ فعل الخير بلا مقابل، يفضّل الانشغال بأخطائه بدل تفتيش نوايا النّاس أو محاكمتهم، يحبّ العمل التّطوعي، يتورّط في دنيا الثّقافة محاربا في كلّ الاتجاهات ولا يتوقّف عند محطّات التّعب والإحباط. الثّقافة لديه أسلوب حياة وعقيدة راسخة في تكوينه الوجداني، ينطلق محاولا تغيير العالم بلغة الحبّ علّه يترك أثرا يستحقّ أن يُروى عنه بعد رحيله. يتحفّظ في شيء من الرّيبة عند كلّ زاوية فرح لكونه يعرف أنّ فرح هذا العالم قليل وحزنه أكثر، يحبّ الصّدق حتّى لو دفع فواتير خاسرة في التّوقيت الضّائع، يعمد إلى التّضحية ما دامت تصنع فارقا إيجابيّا وإن كان ضمنها جنديّا مجهولا. هذا هو المؤذّن !

(2)

لا بدّ لأيّ توهّج إبداعي أثر قديم، يجعل الإنسان يستمرّ من جهة، ويطوّر جهوده من جهة أخرى، ليحوّل هذه الدّفقات الخارجيّة والدّاخلية إلى طاقة إبداعيّة تمرّ على كلّ أعمال أدبيّة. فكيف اكتشف أستاذنا ذاته في خضمّ التّجربة؟

اكتشاف الذّات أمرٌ عصيّ، ماذا تريد من هذا العالم ؟! أأنا متفرّد وسط هذا المحيط الإنساني متلاطم الأمواج؟ تساؤلات

تبقى المراقي بين الدروب أمرا عاديا، لكن أن يتجاوز الإنسان خطوط المراقي إلى التميز فذاك من النوادر، فقد برزت في الساحة المشرقية وجوه أدبية عديدة، عبرت عن طموح الإنسان وأساليب العيش ونوع الشعور. وبين هذه التعابير تألقت تجارب عديدة، عبرت عن وهج أدبي وفني متصاعد، يعضده بروز وجوه شابة أخذت مشعل التألق، فمزجت بين نفحات المواضي ودروب المراقي. وفي خضم هذا الوهج الإبداعي يتألق خط مبدع ((بحريني)) من بلاد الخليج المثمر، ليتألق خط هذا الإبداع بين الدروب، فيكشف لنا عن خبايا الواقع وأفقه. ليثمر هذا الأثر تجارب روائية تارة، وقصصية تارة أخرى.

عن تجربة الرّوائي البحريني «الأستاذ أحمد المؤذن» في ميدان العمل الرّوائي والقصصي، انطلقنا معه في حوار هادئ، نكشف فيه عن خصوصيّة المشهد الأدبي والفنّي البحريني، وعن أهم الأمور التي شجّعت وتشعّ الكتابة المشرقيّة، وكذلك عن أهم العوائق التي تقف أمام الكثير من أحلام الإبداع والتّألق. فكان الحوار على الشّكل التّالي:

عديدة تلحّ على الفرد بالأخصّ حينما يكون كاتبا أو مثقّفا، خضمّ التّجربة مع كونك كاتبا، يجعلك تتأمّل ما حولك ثمّ تبدأ بمحاولة فهم هذا العالم وفي لحظة الكتابة أنت تعمد إلى قراءة أو ترجمة ما يتوارى في الذّات لتسقطه على مفردات الكون حولك، بعد هذا تكتشف تدريجيّا خارطتك الدّاخلية وتتعرّف على «أناك» وتختبر مختلف ألوانها في تقلّبات الظّروف والأحوال. التّجربة هي التي تشكّل طينك الأول في فرن الحياة حينما تصهرك بنار التّعب وحزن المسافات التي تختبر عزيمتك في الدّروب الوعرة، فليس هناك تذاكر مجانيّة تهبك إيّاها الحياة كي تبلغ أمانيك.

التّجربة هي التي تشكّل طينك الأول في فرن الحياة حينما تصهرك بنار التّعب وحزن المسافات التي تختبر عزيمتك في الدّروب الوعرة

(3)

لا بدّ للإنسان من سند يسير معه، ويحمل عنه بعض ما يؤرّقه من هموم ويساعده على تجاوز بعض العثرات. فهل وجد أستاذنا من يأخذ بيمناه في محيطه الأسري من جهة، ومحيطه الأدبي والمؤسّساتي من جهة أخرى؟

أوّل من شكّلني كقاصّ وزرع بي حبّ الحكاية هي أمّي «السّيده نجيبة» حيث كانت ولاتزال تروي حكاياتها الشّعبية عليّ، كما أنّها حضرت معي لتشريف حفل تدشين مجموعتي القصصيّة الثّانية «من غابات الأسمنت». هي من ساندتني بذات الوقت في استبدال حاسوبي القديم حتّى لا أتوقّف عن الكتابة، فهي وقفت معي في الكثير من المحطات وأعتبرها الدّاعم المعنوي لي في المقام الأول. ضمن محيطي لا يمكن أن أنسى فضل الأستاذ «علي باقر»عليّ، فهذا المربي الفاضل أخذ بيدي وساعدني على نشر تجاربي القصصيّة الأولى. أمّا على صعيد المؤسّسات التي وقفت معي وآمنت بتجربتي وتبنّت تمويل بعض إصداراتي فأذكر مركز «جدّة حفص الثّقافي» ومركز «كرزكان الثقافي والرياضي» و«أسرة الأدباء والكتاب» بالبحرين.

(4)

الواقع الأدبي يشير إلى تراجع متواتر في خطوط الإبداع، فهل يروقك واقع المبدع والإبداع في وطنك البحرين وباقي البلدان العربيّة، وهل ترى أيّ أفق لعودة النهضة الأدبيّة العربيّة ؟

واقع المبدع في البحرين لا يزال دون الطّموح، يتلقّى الدّعم وإن بوتيرة محدودة. في الأعوام الماضية كانت السّاحة الثّقافية من حيث الأداء العام أفضل في استيعابها للمثقف البحريني عندما كانت هناك جائزة التّميّز للكتّاب في القصّة والرّواية والشّعر. أمّا اليوم، فالمبدع المحلّي يشقى ويتعب كي يصدر كتابه الأول. صحيح أنّ الدّعم المؤسّساتي موجود لكنّه ضيّق ومحدود. من جهة أخرى لا نستطيع أن نطلق جزافا على كلّ ما يُطرح في سوق المكتبات (إبداعا) حيث أنّ روح الحماسة لدى الأقلام الشّابة يجانبها الصّواب أحيانا وتستعجل النّشر قبل أن تنضج تجاربها بالشّكل الكافي سواء في الشّعر أو القصّة أو الرّواية. و يرتبط

> مهمّة الكاتب ثقافيّا مشكوك في مصداقيتها إن لم يشاغب أو يتمرّد. هو مطالب بفضح ما هو مسكوت عنه في مجتمعاتنا العربيّة

واقع الإبداع على صعيد البلدان العربيّة، بجوانب تنموية تتعلّق بكيفيّة زرع حبّ الثّقافة في الأجيال الشّابة وكيف نترجم وننفّذ سياسات ممنهجة وصحيحة تخدم المناخ الثّقافي الحضاري الذي نطمح إليه حتّى نبلغ حلم النّهضة العربيّة التي لاتزال مجرّد شعارات لا رصيد لها في الواقع وسط حالة عدم الاستقرار التي تضرب دول العالم العربي. لا نتشاءم ولكن هناك ثمّة أمل في نهاية النّفق، بناء النّهضة العربيّة ممكن بتفعيل إرادتنا السّياسية مع الحرص على رصّ الصّف العربيّ خارج الإملآت الدّولية المهيمنة ولكن البقاء في خندق التّنظيرات الإعلاميّة بلا حراك فعليّ على الأرض لا يثمر شيئا سوى الثرثرة الاستهلاكيّة كالتي تنتجها الملتقيات والمؤتمرات الدّولية وتُغدَق عليها الميزانيّات بلا رصيد حقيقي يغيّر من واقعنا العربي.

(5)

لا بدّ لأي عمل من مناخ (عادات، تقاليد، دين، أعراف..) يؤثّر في دواليبه، وتأثير هذا المناخ قد يقيّد هذا الإبداع، فهل أحسست وأنت تؤثّث لمشاهدك الإبداعيّة بأيّ من هذه السّلط؟

أول عهدٍ لي بالكتابة وأنا أبحث عن قراءة القصّة القصيرة أو الرّواية، رفضت فكرة الأدب الوعظي في محاولة من أساتذتي (لقولبتي) ضمن هذا التّوجه في وقتها، فضّلت ممارسة القراءة ثمّ الكتابة بحرّية. قال لي النّاشر البحريني السّيد «موسى الموسوي» ذات يوم : « لتكتب بحرّية.. اجعل رقيبك الدّاخلي تحت قدمك!» بلا شكّ فإنّ عمليّة الكتابة تمرّ بمراحل معقّدة في ذهن المثقّف قبل أن يتمّ إفرازها على الورق لكن في تصوّري، لا يمكن أن نعول على إبداع حقيقي بدون حرّية، لا أقصد من وراء هذا الخطاب أنني أضرب بعرض الحائط «تابوهات» المجتمع الذي أنتمي إليه ولكنّي أجد أنّه بمجرّد المشاكسة والتّلميح المضمر في حدود الممكن، نستطيع تجاوز الخطوط الحمر التي تفرضها سلطة المجتمع أو الدّين أو العادات والتّقاليد بحيث نمسك العصا من النّصف على أحسن تقدير ونبلغ الرّسالة التي نريد للمتلقّي، مهمّة الكاتب ثقافيّا مشكوك في مصداقيتها إن لم يشاغب أو يتمرّد، ليس هذا مجرّد « تغريد خارج السّرب» مبرّره محاولة التّفرد للفت الأنظار وحسب، بل لممارسة مسؤوليّة فضح ما هو مسكوت عنه في مجتمعاتنا العربيّة.

(6)

لحضرتكم الكثير من الأعمال الأدبيّة المميّزة، فحبّذا لو سردت لنا بعض التّفاصيل عنها، وخاصّة عملك المثير رواية « وقت للخراب القادم»، الذي تضمن الكثير من الرّؤى حول صراع العوالم وإشكاليّة الخير والشّر كسؤال فلسفي يكتسي طابعا سياسيّا دراميّا كما هو واضح من العنوان، عن أي خرابٍ تتحدّث هنا؟

ربّما يطول الحديث حول أعمالي الأدبيّة المنشورة ولكن بصورة عامّة. أنجزت خمس مجموعات قصصيّة قصيرة وهي: (أنثى لا تحبّ المطر / من غابات الأسمنت / رجل للبيع / وجوه متورّطة / الرّكض في شهوة النّار). عملي الرّوائي «وقت للخراب القادم» هو العمل الأول لي في عالم الرّواية، حقيقة هذا العمل تحدث عن ثمن الدّيكتاتوريّة وما يمكن أن تدفعه الشّعوب من فواتير مستقبليّة تحرق مستقبلها وأحلامها وأمانيها وأمنها وسعادتها وهنا تقع ثيمة «الخـراب» في موقع محوري من احتدام الصّراع على مختلف المسارات والتقاطعات.

محطّات كثيرة تمرّ بها هذه الرّواية التي كُتب عنها الكثير بما يناقض قلّة الاكتراث بها محلّيا إلى درجة مصادرتها من قبل جهة رسميّة (.....) ومن ثمّ إعدامها كأيّ كتاب غير مرغوب! بالرّغم من ذلك حقّقت الرّواية انتشارا أفضل وحصدت عام 2013 المركز السّادس في الكتب الأكثر مبيعا في معرض الشّارقة الدّولي للكتاب. نزلت إلى الأسواق في طبعتها الأولى عام 2009 في دمشق ثم الطّبعة الثّانية والثّالثة في القاهرة 2013 - 2014 م.

(7)

كيف تقرأ أفق التّجربة الرّوائية والقصصيّة بمملكة البحرين، وهل انفتاح المرأة البحرينيّة في نظـرك سيساهم في كسر الطّوق؟

متفائل بهذا الأفق في ساحة ثقافيّة نشطة تقدّم عطاءاتها بغضّ النّظر عن الصّعوبات التي يواجهها المثقف البحريني، الأجيال الشّابة التي تؤسّس تجربتها بشكل صحيح إن كان على صعيد القصّة أو الرّواية مثل.. (فتحية ناصر، فواز الشّروقي، عبد العزيز الموسوي، حسين عبد علي خليل، أيمن جعفر، خديجة هارون) مع أسماء أخرى كبيرة العمر والتّجربة مثل (الرّاحل عبد الله خليفة، فريد رمضان، جمال الخياط، أمين صالح، عبد القادر عقيل، محمد عبد الملك، حسن بوحسن، مهدي عبد الله، رسول درويش، نعيمة السماك، فوزية رشيد) وأسماء أخرى لا تحضرني الآن جلّها تؤثّث المشهد السّردي المعاصر في مملكة البحرين وهي بمثابة رافعة لهذا المشهد تؤكّد حضورها الإبداعي ولاسيما « الراحل» عبد الله خليفة حيث إصداراته لاتزال تتواصل مع السّاحة رغم غيابه عنا.

اليوم. انفتاح المرأة البحرينيّة لا أحد يشكّ في حراكه، فالمرأة لها حرّية الكتابة على صعيد السّاحة الأدبية ولا أعتقد أنّها محاصرة، يبقى هناك ثمّة إشكاليّة يفرضها الرّجل عندما يمارس سلطته الذّكوريّة ويمنع زوجته من الكتابة في الصّحافة المحلّية أو أن يمنعها من إصدار كتاب أو الظّهور في الملتقيات الثّقافية، هذا يحدث ولكن على نطاق ضيق، الصّورة العامّة تخبرك أن المشهد الثّقافي البحريني يحتفي بالمرأة البحرينيّة ويحسن تكريمها على مجهوداتها.

(8)

ماذا تعني لك هذه الكلمات في نطاق الإبـداع والحياة: (التقاليد، الدّين، المرأة، الحبّ، الحرّيـة) ؟

التّقاليد: نستطيع دراستها ومن ثمّ دمجها ضمن عمليّة الكتابة كي نخبر (الآخر) عن هويتنا الثّقافية لا أن

نتوقّف عندها ونجعلها حائط صـدّ في سبيل تقدّمنا ومواكبة العصر.

الـدّين: حاجة فطريّة وروحيّة تحفظ للإنسان توازنه العقلي والنّفسي ومن جهة أخرى لا يجب أن « نؤدلج» أو « نطأفـن / طائفية» هذا الدّين حتّى نبلغ مرحلة الصّدام والمواجهة التي تجرّ الويلات والحروب على بني البشر، يريد الله تعالى لنا الخير والسّلام عندما نؤمن، فلماذا نتقاتل ؟!

المرأة: لولاها لما كتبت القصائد أو اخترعت الألوان والعطور والأزياء، فبدونها تصعب الحياة على وجه الأرض.

الحبّ: نسائم الحياة على الأرض والثّدي الأول الذي أرضع الإنسانيّة معنى الكينونة وفهم الذّات، حيث لا يمكن أن نكتب بلا لغة الحبّ أو نمارس حياتنا في دائرة الرّوتين بلا أو كسجين الحبّ.

الحرّية: صعبة المنال وعصيّة على الامتلاك، أريق في سبيلها أنهار من الدّم والدّموع وكانت ولا تزال محور صراعات شتّى لا تستثني حرّية الكاتب الذي يسلخ من جلده كي «يكون» فإن نجح في الاختبار يكون جديرا بالألقاب التي تسبغ عليه، لا أن تكون « مجانية» بلا رصيد من التّضحية الحقيقية!

(9)

كلمة أخيرة للأستاذ أحمد المؤذن:

أوجه شكري لك ولأسرة تحرير مجلة «الإصلاح التونسية» على إتاحة هذه الفرصة الطّيبة، حيث من المهمّ هنا تقريب المسافات بيننا في الخليج العربي والمغرب العربي بغية لمّ شمل المشهد الثقافي العربي من المحيط إلى الخليج وهذا تماما ما نحن في حاجة إليه حينما تتعذر فرصة اللّقاء المباشر عن طريق الأعراس والفعاليات الثّقافية التي تكرّس في أغلبها حالة الشّللية ولا توفّر المناخ الملائم كي نلتقي على بساط المحبّة والبساطة، هي بادرة جميلة من منبركم «مجلة الإصلاح التّونسية» تؤسّس لحدث أكثر جمالا ذات يوم عندما نزور ضفاف البحر الأبيض المتوسط ونحن نحمل لكم رائحة نخيل ديلمون وأهازيج « جلجامش».

كتب الإصلاح

http://www.alislahmag.com

(10)

التجربة التونسية: النموذج والظلال

بقلم : د. محرز الدريسي

(15)

فقهنا السياسي

من الظهور إلى الضمور

بقلم : العادي بريك

(17)

مواجهة الفقر

بين قصور التمويل الأصغر التقليدي

و فُرص التمويل الإسلامي

بقلم : نجم الدين غربال

التحميل مجاني عبر موقع المجلّة:
www.alislahmag.com

الزيتونة التميمية

إلى عهد التميمي وأترابها

د. حسن الأمراني
«شاعر من المغرب»
hassanelmrani49@gmail.com

(استهلال)

سيقولون لماذا لم تعد للحبّ تعزفْ؟
أتُــراه الشّيبُ ينهاك وظلُّ الموت أشرفْ؟
أم هو الدّينُ عن الأهــواء واللذّات يَصرِفْ؟
عجباً ممّن له الغفلةُ تخطفْ
أوليس الحبُّ كلُّ الحبِّ أن أحمي شعبي
من طغاةٍ لا يرون العيش إلا لذّةً في ظلّ مقصفْ؟
فليكنْ شعريَ سيفاً لرؤوس البغي يقطفْ
وليكن شعري ورداً للتميمية
وهي الــــرّعدُ للعدوان يَــــقصف

(1)

يتدلّى القمرُ الأخضرُ من شرفةِ عينيكِ ويرشُفْ
من ندى نجمةِ صبحٍ
لم تزلْ، يا قدسُ، تهتفْ:
خبّئيني خلْفَ أحلامكِ،
هذا ألفُ قنّاصٍ إلى لحمي تشوّفْ
وعلى برجك أبياتٌ من الــزّهرِ روتْها انْخَدِوانا،
عن أبينا يشحذ الــمُــدْيةَ قُــربــاناً إلى اللّه،
ومن سُــومَرَ تنسلّ الفراشاتُ إلى القدسِ،
ومن دجــلةَ ينصبُّ حنينٌ ليس يوصفْ
وجفون الليلِ، ليلٍ نابغيّ، من نصال الغدرِ تذرفْ
(نهرُ غسّــانَ الذي كان رحيقاً
بابليّ الدنّ إن صُــفّــقَ
هاروتُ به مالَ
كأنّ الشمس من رؤياه آصَــــفْ
وجرى من تحت حسّــانَ يُناجي
مسمع الطير فسيقتْ زُمــراً
منْ سحْــر شبّــابةِ معشوقٍ مشنّــفْ
ذلك النّهر الذي كان بِقُرْطي مريمٍ يزهو ويتْحفْ
أصبح اليوم ظهيراً لسيوف الرومِ،
حتّى ويدّ منه إلى الثّــوّار تهتفْ
وسوى الروم وراء الفارس المقدام روّمْ
قادها رمْــح مثقّــفْ

يصطفيهِ كلّ مترفْ

داسَ أحلام المساكينِ، وللعلج تزلّـفْ

ومرشّات الصبايا السومريّاتِ

ترشُ الودَّ والورد على أمّ شهيدٍ،

قد تجلّى في ربى القدس، وعيناه عروجْ:

ما لحبّي من ضفافٍ،

أتراه من أحب السّدرة الغـــرّاء يُسرفْ؟

(2)

نجن ما قلنا إذا ما عرضتْ سنبلةُ الصّيفِ العذارى:

«هل رأى الحبُ سكارى»

فعذارانا لها من مريمَ العذراءِ طهرْ

ولها سرٌّ عظيمٌ ليس في غير الميادين سيُكْشَفْ

فـهْـو من بأسٍ شديدٍ

كم يغار البأس منه

ويخاف الخوف منه

وهْـــو، من لينٍ وإشفاقٍ،

من الشّادن بالمظلوم أرأفْ

(3)

بسطـــتْ ساجدةُ الحبْـلَ لعهدٍ،

فوصلنا الحبْـــلَ، لكنّ مقاريض تمرلنكَ

كحَـبلٍ حول جيد القمَـرِ المأسورِ ملتفْ

وتقول انخدوانا: أنا إذ أبكي عراقي

فإلى القدسِ اشتياقي

وإلى طينةِ جدّي أتلهّـفْ

(4)

الصحابيّاتُ رابطنَ على بوّابةِ القُدْسِ

فما من نجْمةٍ إلا تدلّتْ من سماها

واستقرّتْ في حجور المريميّاتِ،

يواقيتَ سرى من كفّ دهقانَ سناها

وسناها من شذاهنَّ

فقد بايعـت الـذّلْفاءُ ما منه

إلى أوردة الصخرةِ عند الفجر أدلفْ

(5)

التميميةُ قامت كشهابِ الرّجْـمِ ترمي

كلّ شيطانٍ إذا الخطْـفةَ يخْطفْ

نفخت عهدٌ بوجه الجند في الصُور

فكرسيّ يهوذا يتقصّفْ

وبعـيني جؤذرٍ قد أرسلتْ إنذارها

من فوقِ كتْف الحارس المذعورِ،

قالت: أيّما زيتونةٍ جرّفتموها

سوف تنمو فوقها زيتونةٌ أخرى،

وينمو حولها جيلٌ جديدٌ، عزمُه عَزْم المثنّى،

هو للظامئ للنّورِ شرابٌ

وهو للباغي سرابٌ

وعذاب الله عن كلّ ظلوم ليس يُصرفْ

(6)

لم يبالوا قتلَ راشيلَ ولا

صدرها العاري المجـــرّفْ

أتراهمْ سيبالون بعهدٍ؟
ومتى كان لهم عهدٌ، وإسرائيلُ عهدَ اللّه تُخْلف؟
كلّ سيفٍ همجيٍّ لا يبالي بالصبايا،
حين يمتصّ ترابُ الأرضِ ما تنفثُ من آلامها،
أو تتحدّى كِـــبْر شاليت المزيّفْ
بين راشيل «شوازنبرغ» و«كوري»
خندقٌ من سالف الحقد مجوّفْ

(7)

قام جلعادُ يناجي صوتَـــــه:
ما كان أجدادي هنا من ألف عامٍ
فلماذا نتفلسفْ؟
كان أجدادي بغرناطةَ في سوق البيازين،
يبيعون حريرا شنغهانيّا، وجلدا قـــرَظيّا،
وابن عمّي كان إسكافاً فقيراً،
والرضا كان لنـــا ثوباً جميعاً،
هكذا كنّا، وكانَ الوضعُ ألطفْ
وأبي كان على إيقاع حزن (المندلينا) من قريبٍ،
يقرأ التاريخَ:
كانتْ عندنا دارٌ جوارَ المسجد المحزونِ،
في مدخل غرناطةَ الغربيّ، في أقصى زقاقٍ،
والمصلّون إذا ما فرغوا كانوا يمرّون بدكّان أبي،
يبتاعون مقداراً من الزيتون والتّين المجفّفْ
وعلى وقع المآسي
كان (عمّي مصطفى) يمنحُ «عبّاسيّةً» «كلّ خميسٍ
لصبايانا، فيرقصن (فلامنكو)
ويُـجَرْحـنَ جبينَ الأفقِ إيقاعا حزيناً،
ويُـقَـشّرْنَ حكاياتٍ تقضّتْ ذابلاتٍ،
وانتهتْ في قاعِ فـاسٍ يتهادينَ على الدفّ:
نحنُ لن نيأسَ إلا من ظلامِ اليأسِ،
غرنَـــــاطةٌ لن تنسى بنيها
ودروبُ القدسِ لن تنسى الذي قد كان فيها
وصدى الدبكةِ بالعودة يهتفْ

(8)

وأتى ذات صباحٍ قاصفُ الريحِ،
فلم يُبْقِ لنا من زمنِ الوصلِ،
ومن غرناطـــةٍ إلا بقايا من مجلّفْ
فلماذا نَـرجعُ المشهدَ من أوّل فصلٍ في فلسطينَ؟
لماذا نرتضي ما يرتضي المـُخرجُ:
(كـونوا قاصفَ الريحِ:
إذا مرّ على زيتونةٍ خضراءَ جرّفْ
وإذا صادفَ زرعاً للفلسطينيّةِ الأيمِ أتلفْ
وإذا ما ظمئ النّاس إلى قطرة ماءٍ
غـوّر الآبارَ، والأنهار جفّـفْ)

(9)

كان جلعادُ يناجي صوتَه..
لمّـا دنتْ منه يدُ الضابطِ ليفي.. فتوقّفْ

(10)

صوتُ لوركا جسدٌ تخترقُ النار جنابيه،
ولكنْ جمرةُ الشعْرِ على العالم شمسٌ ليس تكْسفْ
صوتُ لوركا تحت عين الجند في غرناطةٍ
يدفع عنه الحُزنَ مما يتدلّى من عناقيدِ هوىً
يطلُـع من أفواف تطوانيـةٍ
قد هرّبتْ أندلُسَ العشقِ بأردانها،
والقمر الباذخُ قد أشْـعَرها
أشواقَ قفطانٍ على قَـدٍّ مهـفْـهـفْ

(11)

وأرى في المدخل الغربيّ للأقصى
ترانيمَ لحنّاءٍ على كفّ عروسٍ،
وأرى جدّي مع الحُجّاجِ يُعْلي خيمةَ النورِ،
أما كانت هنا
رايةُ المنصور يعقوبَ ترفرفْ؟

(12)

يا إلهي! بين جنبيّ صباباتٌ،
وقلبي تحت وقع المطرِ العاشق يرجفْ
وشموخُ السّنبلاتِ الصُـفْـرِ
لما تتحدّى كلماتِ البندقيّاتِ،
ترى الشّمسَ على راحتها تُشبهُ مهوى صولجانٍ،
أو كمثل المهر إذ يألف مولاه ويؤلفْ

(13)

لم تزلْ أحذيةُ الجندِ على خدّ عروسٍ
تسأل النظرةَ شزراءَ وتُلْحفْ:
من تراه ثبّت العزمَ بعينيكِ؟
أهذا جبل الكرمل يدعو؟
أم ندى صوتِ بلالٍ
يملأ الصحراءَ توحيداً ويهتفْ:
«أحدْ...»
من، عهْـدُ، أعطاك التحدّي لا يجارى
وشمُـوساً لا يُـبارى
وإباءً ليس يُـقْـصفْ

(14)

اليمامات من الضفّةِ يغزلن سريرا مـخْمليّاً
مثل أحلام الفراشاتِ مفـوّفْ
فافتحي أيّـتُها الأرض ذراعيكِ،
فلم تعرفْ صباباتُـكِ من قبلُ بهاءً
كـعروسٍ زفّها نحوك عشقُ القدسِ،
يا عهدَ تميم، أنت قد علّمتنا الصّـبرَ،
فقام الفجْـرُ يسعى، والحواريّونَ جاءوا
يُنشدون:
«اليوم زيتونةُ جدّي زيتُها أبهى وأشرفْ»

حديقة الشعراء

سهام العكروت بلخير
«شاعرة تونسية»
Belkhirsihem5@gmail.com

بيان الغضب

بياني إلى قمّة في السّفه
أبي العنجهيّة والعجرفه
وأمثاله من بني أمّته
وحكّامنا عاملي الصّيرفه
جرائمكم أسقطت هامكم
قراراتكم كلّها مجحفه
لتسعر فينا لهيب الغضب
فدى المقدّس الغضبة المشرفة
نزعت قناع السّلام الذي
يخبئ سحنتك المقرفة
ونعرف ما كان إلاّ قناعا
ليزداد كيد القوى المرجفه
تمكّن فينا الصّهاينُ حتّى
نسالمهم دون بنت شفه
وسالمك الناقصة وتبّا
لمن في الخيانة حازوا الصّفة
فمن عهدهم بالسّلام الذّليل

بلانا ذَوُو العيشة المترفه
وأمضوا مع الغاصبين عهودا
ونعرف تطبيعهم معرفه
فكيف لعقل سديد يرى
لأبناء صهيون من منصفه
فهم غاصبون وهم معتدون
وهم قاتلو الطفل في ملحفة
وهم من يخونون هم صيّروا
قرارات كلّ الأمم منشفه
وكم هجروا الشّعب قهرا
وكم تقلع زيتوننا المجرفه
نصوص كتابهمو حرّفوها
وتاريخهم كذبة زائفه
فليس لهم بفلسطين أرض
ولا سبر في قدسنا المشرفة
وكلّ قراراتكم غير هذا
لحيف يؤدّي إلى منزفة
فشعب الشّهادة ليسوا الملوك
الذين يبيعوننا مضعفه
فشعب الشّهادة أهل الفداء
وشعب الشّهادة كالعاصفة
فخافوا وخافوا وخافوا وعيدا
ستأخذكم غضبة قاصفة

30 مارس 2001

ميلاد البطلة الفسطينية

عهد التميمي

كل عام وأنت بخير يا «عهد» ...
كل عام وأنت على العهد يا «عهد»

عهد التميمي فتاة فلسطينية من مواليد قرية النبي صالح في 30 مارس2001. شاركت منذ عمر الرابعة مع والديها في العديد من المسيرات والمظاهرات رفضاً للسياسات التي يفرضها الكيان الصهيوني، وهي ترى أنّ الخروج في المسيرات المناهضة للسياسات الإسرائيلية حافز للناس للاستمرار في النضال. عُرفت «عهد» بين أقرانها أنّها دائمة التصدي للكيان وتحدي جنوده. في 19 ديسمبر 2017، تصدّرت عهد التميمي (وعمرها 16 عاماً و طالبة في الثانوية العامة) صفحات الأخبار ووسائل التواصل الاجتماعي لتصديها للجنود، وصفعها لجنديين مسلحين،مما أدى إلى اعتقالها في ساعةٍ متأخرة من ليلة الثامن عشر من ديسمبر 2017 من طرف أكثر من عشرين دورية صهيونيّة.

طارق رمضان
حفيد الشهيد حسن البنا
المثير للجدل

هو مفكر وأكاديمي إسلامي سويسري، وأحد القيادات الإسلاميّة في أوروبا ومن أكثر الشّخصيات المؤثّرة فيها. أقلق النّخبة الغربيّة بمختلف توجهاتها بحضوره الفكري والإعلامي الواسع وبما لديه من حجج وبراهين وأسلوب جذّاب في الحوار وطرح المواضيع ومناقشتها لكنّه أثار كثيرا من الجدل في أوساط الإسلاميين خاصّة الجماعات السلفيّة والتقليديّة بسبب أفكاره ورؤيته التجديدية للإسلام والتي يطرحها في كتبه ومحاضراته. منع من دخول أمريكا وناصبه الخصام عدّة مسؤولين في فرنسا. إنّه الأستاذ الدّكتور طارق رمضان.

اخترنا أن نتحدث عنه وعن مسيرته الثريّة في هذا الوقت بالذّات لأنّه يتعرّض إلى أكبر حملة تشويه وأكاذيب يشنّها أعداؤه في أوروبا وخاصّة في فرنسا وتسوّق لها وسائل الإعلام المعادية لكلّ فكر مستنير يختلف مع العلمانية. يوجد طارق رمضان اليوم في سجون فرنسا تحت طائلة التحقيق بتهمة الإغتصاب.

ولد طارق رمضان في جنيف بسويسرا في 26 أوت 1962، هو ابن سعيد رمضان، ووفاء البنّا ابنة حسن البنا، مؤسّس جماعة الإخوان المسلمين في مصر. كان والده شخصية بارزة في جماعة الإخوان المسلمين، وقد نفاه جمال عبد الناصرمن مصر، فلجأ إلى سويسرا.

تلقى الدكتور طارق تعليمه الأول في مدارس جنيف الفرنسيّة وجامعاتها، وحصل على درجة الماجستير في الفلسفة والأدب الفرنسي، ودرجة الدكتوراة في الدراسات الإسلاميّة والعربيّة من جامعة جنيف بسويسرا. وخلال مراحل دراساته العليا عمل في تدريس الأدب الفرنسي بجنيف لعدة سنوات. كما عمل عميدا لمؤسسة ثانوية عليا وهو في الخامسة والعشرين من عمره؛ ولأنه كان ذا اهتمام خاص بالدراسات الإسلامية فقد سافر عام 1992 إلى مصر لمتابعة دراساته الإسلامية لمدّة عام تلقّى خلاله تدريبًا مكثّفا في النصوص الإسلاميّة التراثية ومنهج قراءتها على الطريقة التقليدية من أساتذة ومشايخ جامعة الأزهر الشّريف في القاهرة وحصل منهم على سبع إجازات في العلوم الإسلامية.

وقام أيضا بإلقاء محاضرات حول العلوم الإسلامية في جامعات فرنسية بين عامي 1992 و1994. وبالإضافة إلى عمله الأكاديمي، عمل رمضان في منظمات إغاثة ومنها «أطباء بلا حدود» و«جمعية أرض

البشر» جاب من خلالها أفريقيا وأميركا الجنوبيّة والهند.

ويشغل المفكر طارق رمضان منصب أستاذ الدراسات الإسلاميّة المعاصرة بجامعة أكسفورد (معهد الدراسات الشرقية، كلية القديس أنتوني) وأستاذ الأديان في كلية الدراسات اللاهوتية في أوكسفورد.كما يعمل أستاذا زائرا بكلية الدراسات الإسلامية بقطر، وباحثا أولا في جامعة دوشيشا بـ اليابان، علاوة على منصبه كمدير لمركز دراسات التشريع الإسلامي والأخلاق في دولة قطر.وهو أيضا رئيس المركز الأوروبيّ للأبحاث (الشبكة الإسلامية الأوروبيّة EMN) في بروكسل، وعضو الإتحاد العالميّ لعلماء المسلمين.

طارق رمضان هو مستشار وخبير لدى عدّة لجان في البرلمان الأوروبي. ويشارك في عدّة غرف عمل عالميّة لديها علاقة بالإلهيّات والأخلاقيّات، وبالحوار بين الأديان والثّقافات. وهو عضو في الفريق الاستشاري لوزارة الخارجية البريطانية في حرية الدّين والمعتقد.

يرى الدكتور طارق أنّ المسلمين اليوم في حاجة إلى تغيير أنفسهم ومجتمعاتهم وأفكارهم لمعايشة التطور العلمي والمجتمعي والفكري ومواءمة مفاهيمهم الدّينية للعيش في عالم علماني، ولهذا يسعى في مؤلفاته إلى تطوير المفاهيم الإسلاميّة لتكون قادرة على أن تساهم بدورها في مناقشة القيم الأخلاقية العالمية الرّاهنة. كما يحاول تقريب وجهات النظر بين الغرب والإسلام.

ولهذا شنّ رمضان حربًا شديدة على فقهاء الإسلام المعاصرين ويتّهم أغلبيتهم بالعيش على الهامش من منجزات العلم المعاصر، فهم في رأيه يعيشون في عالم آخر غير الذي نحيا فيه، ويعتقدون أنهم أفضل في فهمهم للإسلام من غيرهم، في حين أنهم يفتقدون أي فهم عصري للحياة الراهنة، ذلك لأنهم ما زالوا يتناولون الفهم الديني كما كان يتم تناوله من قبل مئات السنين، وكأن كل منجزات العلم الحديث لم تغير شيئًا.

يعتبر الدكتور شخصية فاعلة على المستويين الأكاديمي والفكري في أوروبا خاصّة، وهو يسجّل حضوره الدّائم في مختلف الفعاليّات والنّقاشات الدّائرة بأوروبا والغرب عموما حول قضايا المسلمين.

تحوّل طارق رمضان إلى نجم كبير في الإعلام الغربي بعد مناظرات حيّة جمعته بكثير من المفكّرين والسّياسيين الغربيّين الذين يقفون في صراع سياسي وفكري واضح مع الإسلام. ففي نوفمبر2003 حقّق الرجل شعبية كبيرة في أوروبا بعد مناظرة جمعت بينه وبين وزير الداخلية الفرنسي آنذاك نيكولا ساركوزي حول الحجاب، كما دخل في مناظرة قوية مع عدد من المثقفين اليهود الفرنسيين واتهمهم فيها بدعمهم المطلق للسياسة الإسرائيلية في الشرق الأوسط، وهو ما اعتبره «رمضان» انحيازًا مطلقًا للجانب الصهيوني.

يعتبر طارق رمضان مفكرا منتجا إذ أصدر عشرين كتابا في ستة عشر عامًا، ترجمت جلّها إلى العديد من اللغات، من بينها «الإسلام، الحضارات وجها لوجه، أي مشروع لأي حداثة؟» (2000)، و«بين المرء وقلبه» (2001)، و«مسلمو الغرب ومستقبل الإسلام» (2003)، و«مسلمو الغرب: البناء والمشاركة» (2004)، و«محمد.. حياة الرسول» (2008)، وأصدر كتاب «الإصلاح الجذري.. الأخلاقيات الإسلامية والتحرر» (2008) وقد تُرجِم إلى العربية ونشرته الشبكة العربية للأبحاث والنشر ثمّ كتاب «البحث عن المعنى وتطوير فلسفة التعدد»(2010)، و«الإسلام والصحوة العربية»(2012)، و«الصحوة العربية.. الإسلام والشرق الأوسط الجديد»(2012). و«عن الإسلام والمسلمين» (2016)، و«عبقرية الإسلام» (2017).

لطفي الدهواثي
« عضو الهيئة العلمية
لمنتدى الفارابي للدراسات والبدائل»
lotfidahwathi2@gmail.com

مجتمع مدني مأزوم

(1)

يكون المجتمع المدني حرّا أو لا يكون، ومن ثمّ فإنّ حركة المجتمع الحرّ تختلف اختلافا جوهريّا عن حركة المجتمع الذي تصادر الدّولة حرّيته، ومن ثمّ فقد سعت الدّولة دائما للتّحكم فى حركة المجتمع وإخضاعه عبر اللّجم أو عبر الاختراق. لقد كان على الدّولة أن تترك للمجتمع هامشا من الحركة حتّى لا ينفجر بوجهها وحتّى يستطيع التّعبير عن نفسه من خلال مؤسّسات مدنيّة ينشئها هو، ولكن عينها كانت لا تغيب عن تلك المؤسّسات، فإن لم تستطع إخضاعها كلّيا أو نسبيّا فإنّ الصّدام بينها وبين هذه المؤسّسات المدنيّة كثيرا ما كان دمويّا وكارثيّا فى كلّ الأحوال.

(2)

النّقابات العمّاليّة مؤسّسات من مؤسّسات المجتمع المدني، تتّخذ لنفسها أشكالامن التّعبير عن دورها في حماية العمّال وتأطيرهم والتّعبير عن مطالبهم، وهي منظّمات لا تنشأ إلاّ

تعبيرا عن حاجة ملحّة ولم تكن فى يوم من الأيام ترفا يطالب به العمّال. ولأنّ هذه النّقابات تعبير حرّ عن الإرادة فقد ظلّ هاجس الإخضاع والتّفتيت والقمع يحكم علاقة الدّولة بها باعتبارها أداة لتعطيل الإنتاج وفرض المطالب، في حين كانت هذه النّقابات لا تألو جهدا فى حشد العمّال و تأطيرهم وراء مطالب محدّدة ولا يهم أن يصل الأمر إلى الصّدام أو بذل التّضحيات الجسام دفاعا عن حقّها في النّشاط ووفاء لإرادة العمّال.

(3)

> **"يكون المجتمع المدني حرّا أو لا يكون، ومن ثمّ فأنّ حركة المجتمع الحرّ تختلف اختلافا جوهريّا عن حركة المجتمع الذي تصادر الدّولة حرّيته"**

العمل الحزبي ليس إلاّ تعبيرا مدنيّا عن حاجة النّاس للتّنظم والمشاركة فى الشّأن العام، والمجتمعات الحرّة تحكمها الأحزاب بواسطة الانتخابات عملا بسنن التّداول السّلمي على السّلطة وعبر برامج يجتهد القائمون على هذه الأحزاب فى وضعها استمالة للنّاخب وسعيا منها للإسهام فى تطوّر المجتمع.

في زمن الاستبداد لا يكون العمل الحزبي حرّا إلاّ إذا كان فى إطار ما تسمح به السّلطة الحاكمة ولذلك لا تنشأ الأحزاب تعبيرا طبيعيّا عن حاجة النّاس وإنّما تكون وسيلة الحاكم فى بسط نفوذه. ولقد مرّت على دول عقود طويلة وهي تخضع لحكم حزب واحد هو حزب الرّئيس حتى انتفت صفة المدنيّة عن هذا الحزب وتحوّل مع الزّمن إلى جهازٍ أمنيّ متخفّ غايته ضبط المجتمع وإخضاعه لإرادة الحاكم باللّين أو بالقوة. ولكن حين يجد المستبدّ نفسه مضطرّا لحلحة الأمور خوف الانفجار، فقد يسمح لبعض الأحزاب بوجود صوري أو يعطي لبعضها دورا ضئيلا ضمن تعدّديّة هشّة لا تؤثّر فى القرار ولكنّها تتيح له الظّهور بمظهر ديمقراطيّ لا يفضي إلى شيء.

لا يكتفي المستبدّ بالتّحكم فى المشهد السّياسي عبر حزبه أو عبر الأحزاب التى تخضع حركتها لإرادته ولكنّه لا يتوانى عن قمع أيّ إرادة حزبيّة لا تخضع له ولذلك شهدت دول كثيرة صدامات لحكّامها مع أحزاب وحركات سياسيّة كانت نتائجها مأساويّة وصلت حدّ إعدام قياداتها وأفراد منها بعد حلّها ومصادرة أملاكها وسجن الآلاف من مناصريها.

(4)

لا يختلف الأمر فى شيء عند الحديث عن الجمعيّات النّاشطة فى المجال العام بمختلف أنواعها ولا عند الحديث عن المؤسّسات الثّقافية كالمنتديات والمهرجانات والجمعيات ذات الاهتمام الثّقافى، والشّأن نفسه بالنّسبة للجمعيّات ذات الطّابع الدّيني أو تلك التى يكون القائمون عليها من أهل الدّين.

لا ينظر الإستبداد إلى المجتمع المدني باعتباره رافدا من روافد العمل العام وإنّما ينظر إليه باعتباره تعبيرا

عن إرادة مخالفة ومن ثمّ وجب إخضاعه بكلّ الطّرق حتّى لا تنفلت الأمور ويصبح للمجتمع إرادة أقوى وفعل أكثر تأثيرا.

كان المجتمع المدني مغلولا كلّيا أو نسبيّا ومن ثمّ لم يكن بوسعنا الحديث عن دوره الفعّال في التّعبير عن إرادة المجتمع كما هي فى جوهرها ولا عن تفاعل حقيقي بين أفراده والدولة. كان النّظام التّونسي مثلا يتباهى بوجود آلاف الجمعيّات النّاشطة فى مجالات مختلفة وهو يعلم تماما أنّ جلّ هذه الجمعيّات أُنشِئت بإرادته هو وتحت إشراف منظوري حزبه الحاكم وأنّ مجالات نشاطها قد حدّدت سلفا، بل إنّ الكثير من هذه الجمعيّات لم تكن إلّا أرقاما للمباهاة أولدفع تهمة الاستبداد عن نظام مستبدّ كليّا.

"لا ينظر الإستبداد إلى المجتمع المدني باعتباره رافدا من روافد العمل العام وإنّما ينظر إليه باعتباره تعبيرا عن إرادة مخالفة ومن ثمّ وجب إخضاعه بكلّ الطّرق"

(5)

جاءت الثّورة بمخرجات كثيرة كان من أهمّها فتح المجال العام أمام النّاس للمشاركة بحرّية كلّ فى مجاله أو حسب إهتمامه، كما أنّها أتت بحرّية التّنظّم والتّعبيرضمن معايير جديدة مختلفة كلّيا عن معايير ما قبل الثّورة والأهم أنّها أتاحت للنّاس مجالا لبناء تصوّرات جديدة للدّور الذي يمكن أن يلعبه المجتمع المدني لا كمجتمع في مواجهة الدّولة أو خاضعا لها وإنّما كمجتمع ذي وعي جديد غايته بناء نهضة مجتمعيّة جديدة ضمن الأهداف التي رسمتها الثّورة لنفسها وضمن أفق لا محدود للعمل والاجتهاد.

كانت الحرّية غائبة أو تكاد فصارت حرّية لا تحدّها إلاّ حدود القانون الذي ينظّم عمل الجمعيّات فهل تغيّر الأمر الآن؟ وهل استطاع المجتمع المدني أن يكون فعّالا كما كان مؤملا؟

لقد ظهرت بالفعل آلاف الجمعيّات الجديدة وتعدّدت مجالات فعلها وأصبح بإمكان أيّ مجموعة ناشطة أن تنشئ إطارا يمكنها من ممارسة نشاطها غير أنّ هذه الطّفرة التي جاءت مع الثّورة سرعان ما بدأت فى الانحسار لتتلاشي الكثير من هذه الجمعيّات أو ينحسر نشاطها إلى حدّ الضّمور فأين مكمن العلّة إذا؟

(6)

نشأت جمعيّات خيريّة كثيرة تعبيرا عن الرّغبة في خدمة المحتاجين للمساعدة فكان لها نشاط ملحوظ فى بداية الثّورة ولكن تشديد الرّقابة والخوف من الاختراق والشّحّ التّدريجي فى الموارد دفع الكثير منها إلي التّوقّف عن النّشاط أو تقليصه رغم ازدياد الحاجة إليها في مجتمع يزداد فقرا وتفقيرا..

وكذلك الشّأن فى المجال الثّقافي إذ ظهرت الكثير من الجمعيّات والمنتديات الثّقافيّة بسبب حماسة النّاس لثقافة بديلة أو تكريسا للرّغبة في العمل على إنتاج نموذج ثقافيّ بديل يعبّر عن هموم الثّورة وأحلام الثّوريين

شبابا وكهولا، غير أنّ هذه الجمعيّات قد اصطدمت بعراقيل كثيرة لعلّ من أهمها شحّ الموارد حيث أنّ العمل الثّقافي يحتاج إلى موارد ماديّة ضخمة من أجل إيصال رسالته إلى النّاس وهذا ما لم يتح إلاّ للقليل من الجمعيّات الناشئة ممّا جعل الكثير منها يتخلّي عن دوره في مقاومة الرّداءة ويقلّص نشاطه رغم بقاء المجال العام مفتوحا.

إنّ اعتماد العمل الثّقافي على مساعدة الدّولة كلّيّا أو نسبيّا وانحسار الاهتمام بالثّقافة عند النّاس عاملان ساهما مساهمة ملحوظة في الحدّ من نشاط المجتمع المدني فى المجال الثّقافي لتتكرّس أكثر فأكثر ثقافة التتفيه على حساب الثّقافة الجادّة و لتخسر الثّورة رافدا من أهمّ روافدها في مواجهة أيّ ردّة.

"إنّ اعتماد العمل الثّقافي على مساعدة الدّولة كلّيّا أو نسبيّا وانحسار الاهتمام بالثّقافة عند النّاس عاملان ساهما مساهمة ملحوظة في الحدّ من نشاط المجتمع المدني فى المجال الثّقافي"

(7)

إذا كان مجتمع ما مأزوما فإنّ مجتمعه المدني سوف يكون أشدّ تأزّما، كما أنّ فتح المجال العام لا يعني إقبالا من النّاس على الانخراط الإرادي في العمل التّطوعي رغم إحساسهم بأهمّية هذا العمل. والأمر لا ينتهي عند هذا الحدّ فقط، بل إنّ إحدى تمظهرات الأزمة التي تعصف بالمجتمع المدني أنّه مجتمع منقسم على نحو فضيع،ذلك أنّ تضادد المشارب الفكريّة والايديولوجيّة قد تكرّس داخل هذا المجتمع المدني، فصار بذلك رافدا من روافد الصّراع وأداة من أدواته ولم يعد التّنوع نعمة داخل المجتمع وعاملا من عوامل الثّراء بل تحوّل إلى نقمة وقد صار لكلّ فئة مجتمعها المدني الذي تذود عنه ونشاطها الذي لا تسمح لغيرها بالمشاركة فيه وتلك لعمري المأساة إذ تهدّد بتفتت المجتمع واحترابه

إنّ أزمة المجتمع المدني أزمة عميقة ودوره فى انحسار ممّا ينذر بتغوّل الدّولة من جديد رغم توق النّاس للحرّيّة.

فرقة بلدنا

في ناس زي الشجر

في ناس زي الشجر ... فيهم زهر حنون
واحد بيعطي ثمر ... وواحد ظلال وغصون
يسقط ورق ويطير مع ريح في كانون
لكن شهيد البلد ... بيظل حتى الأبد
فوق الجبل زيتون
يا دار لا تتعبي ظلي فرح وازهار
في الليل كومي اطلعي ع روس هالأشجار
وللشرق مدي البصر... وقولي لكل الصغار
الخيلة الأصيلة وحدها
بتكمل المشوار
شايفك حيران وموغوش
في حبال الريح تتعربش
أيام الشد تتراخى ... وأيام العز تتنعنش
والأرض زنرها التعب
وانت مطلوق ومكلبش
وكلاب الليل في دمك
تعوي والخوف فيك شرَش

مهما خبيت..راسك
وانكرت الناس..ناسك
وحدو الوطن.. يملا بالعز كاسك
قلي على وين مسافر... شارد ولا انت مهاجر
لسة الشهدا ما خلصوا ... حتى تختم دفاتر
لسة في سجون وعتمة
وخلف القضبان في ثائر
يصرخ في الليل ويدوي
صراخو ع الكون بشاير
محتار وطفل الوطن ...
في الوطن ما هو حاير
تقعد في حضنو النجمة
ويجدللها الضفاير
ولسة في ام بتحبل
وتزرع ع الدرب مناير
وتهز سرير البحر
وبتحمي الطير الطاير

لسماع الأغنية على العنوان التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=Maqr6YTLvOU

كلمات: إبراهيم نصر الله

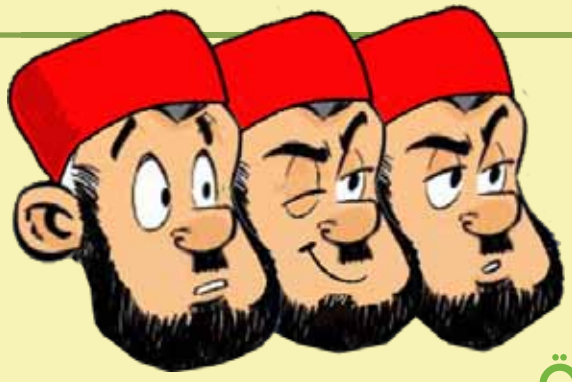

مكام الغلبة

تو عجبك إلي صاير في العرب؟
قتل ومقتول والعالم موش هنا
اليمن مشى..دمار وخراب...
والموت معادش يفرق بين كبير
وصغير.. وسوريا ما قال حد..
القنابل أكثر من الخبز
والروس عاملين بأعمالهم..
كأنها دار بوهم.
الصهاينة ما وقف لهم حد ... مقدمين لقدام
حتى من الأطفال يعذبوا فيهم
ويحكموا عليهم بالسجن..
زيد اللي عملو "ترامب"
باش يحول سفارة بلادو
للقدس في ذكرى النكبة
باش يزيد الشعوب العربية
نكبة على نكبة
والحكام العرب...موش هنا
مكتفين يديهم
ظاهر فيك ما سمعتش
بقراراهم الأخير...
يا سيدي قالك...
معادش مكتفين يديهم
باش يرفعوا
يديهم لفوق

مجلة الإصلاح
إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

128
مـــــــــارس 2018
جمادى (2)- رجب 1439

http://www.alislahmag.com

كتب الإصلاح

يتجدد الموعد
معكم
إن شاء الله في

129

أفريـــــــل 2018
رجب -شعبان 1439